كامل الشناوى

بين الحياة والموت

دار المعارف

Bibliotheca Alexandrina
0127656

بَيْنَ الحَيَاةِ وَالمَوْتِ

بين الحياة والموت

بقلم

كامل الشناوى

الطبعة الثانية

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩٠ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

خذوها.. واطبعوها

هل عندى ما أقوله؟ ربما! ولكن هل هذا الذى أقوله يستحق أن أجمعه فى كتاب؟ ظللت طيلة اليوم أراجع أوراقًا لم أنشرها بعد. فوجدت قصصًا قصيرة، وقصة طويلة بدأتها فى عام ١٩٥٠، ولم أنته من كتابتها حتى الآن، عثرت على بضع قصائد تحتاج إلى إعادة النظر فيها وعدة بحوث عن حياة المتنبى، وأبى حيان التوحيدى، وسخرية أبى العلاء.

وأخذت أقلب فى المجموعات التى تضم ما نشرته لى الصحف خلال خمسة وعشرين عامًا، وإذا هى تكفى من حيث كثرتها لإصدار عدة كتب تتناول عشرات الموضوعات. ومع ذلك فأنا أتهيب تأليف كتاب يحمل اسمى. وإنى لأعرف ناسًا يبهجهم أن تصدر لهم دور النشر كل يوم كتابًا، أو قصة أو ديوان شعر. فما سر تهيبى مما يبهج هؤلاء الناس؟

ربما لأنى لا أثق بنفسى. وليس هذا تواضعًا، ولكنه شعور صادق بحقيقتى، فأنا أومن بأن الحياة نمو وحركة وفى

كل يوم أنمو بالقراءة، وأتحرك بدراستى المباشرة للناس، فحياتى متطورة، وهذا التطور يغير نظرتى إلى الأشياء، فيثير شكوكًا فى آرائى، أو يدعم هذه الآراء.

وكم من فكرة خطرت لى، فلم أجرؤ على إذاعتها، واكتفيت بتسجيلها فى دفتر أدفنه بين كتبى المتناثرة فى جميع غرف البيت حتى لقد صار بيتى أشبه بمقابر الصدقات!

وأحيانًا تمتد يدى إلى دفتر من هذه الدفاتر فأقرأ فيه سطورًا تعجبنى، وأقرأ سطورًا أخرى لا تعجبنى، ثم أتركها كما هى، فمن يدرى؟ لعلها تعجب غيرى فيذيعها بعدما أصبح فى ذمة التاريخ، وهى ذمة تتسع للنابغين وللتافهين على حد سواء!

وقد يسأل واحد من القراء: لماذا إذن تسمح بنشر ما تكتبه من شعر ومقالات؟ وجوابى عن ذلك أنى لا أنشر شيئًا، ولكنى أدفن بعض ما أكتبه فى دفاترى الخاصة، وأدفن بعضه الآخر فى مطابع الصحف التى أعمل بها، ومن حسن حظى أن ما دفنته فى مطابع الصحف أصابه البعث، ولقى صداه عند قارئ، أو أكثر، فأصبحت كاتبًا فى رأى بعض القراء!

أنا لا أجلس مع الناس لأقتل وقتى، وإنما أجلس معهم، لأخلق النبض فى حياتى، والطريقة التى أدير بها الحديث فى مجالسنا، تشحذ خواطرى، وتساعد أفكارى على تدريب عضلاتها!

وفى كثير من الأحيان أترك بيتى أو مكتبى بعد عمل دائم يستمر حتى منتصف الليل، وأذهب إلى حيث أجتمع بناس أستريح لهم، أو أضيق بهم. فالراحة والضيق يثيران شوقى إلى الكتابة، وأنا لا أعرف كيف أكتب دون أن أحس لذعة الشوق وحرارته.

وقد انتابنى فى هذا الصيف طموح إلى أن أطبع عدة كتب، وديوان شعر، ولم أكد أعود إلى القاهرة حتى عدلت عن تفكيرى. قد نسيت فى الإسكندرية طموحى مع رمال الشاطئ والمايوه.

أنت يا صديق أحمد تصغرنى بعشرين عامًا على الأقل، وستعيش بعدى، وعندما تحترق سيجارة حياتى ويرسف القدر آخر نفس فيها، فأهرع إلى بيتى، وخذ ما تجده من أوراق وانشره على الناس، وما أقوله لك ليس مداعبة، ولكن وصية أسجلها هنا علنًا، وعلى رؤوس الأشهاد!

وقد تأثرت فى مستهل حياتى بكلمة لناقد عربى قديم، وقد ذكر أن الإنسان يظل بعقله إلى أن يؤلف كتابًا، أو يجمع ديوان شعر!

ويظهر أننى حرصت أكثر مما ينبغى، على أن أظل بعقلى! وشىء آخر تأثرت به، فقد قرأت منذ ثلاثين عامًا، أن الشاعر الفرنسى بول فاليرى كان لا ينشر قصائده، وإنما ينظمها، ويتركها ملقاة على مكتبه، ثم يعود إليها فينقحها ويهذبها، وكثيرًا ما كانوا يترددون عليه - فإذا وجدوا قصيدة كاملة سرقوها ونشروها باسمه.

وكان إذا هاجمه النقاد لا يرد على هجومهم لأنه لم ينشر شيئاً!

وقد سوغ طريقته فى الإصرار على ألا ينشر آثاره، بأن جميع الشعراء والفنانين القدامى كانوا يصممون أعمالهم فى فترة قصيرة، ويخصصون أكبر فترة لوضع اللمسات الأخيرة لهذه الأعمال، وقد تستغرق هذه الفترة عمرًا طويلا. وبعد ذلك يلقون بما يعملون إلى النار، أو إلى الناس.. فالنار والناس كلاهما جحيم يحرق عمل الفنان!

وأبادر فأسجل أننى لا أنشر آثارى فى كتاب خوفًا عليها من الاحتراق، فليس فيها ما أخشى أن تحرقه النار، أو يحرقه الناس!

وشىء ثالث أغرانى بالتأنى فى إصدار الكتب، فقد تأثرت بأستاذ عظيم هو أحمد لطفى السيد، وطالعت آثاره التى ترجمها عن أرسطو، واستمعت إليه محدثًا فى كل فن، وظفرت منه بأحاديث نشرتها فى الصحف، وليس للطفى السيد كتاب واحد من تأليفه إلا بضع مقالات جمعها تلميذه الأستاذ إسماعيل مظهر.

إن الكتاب مسئولية لا يقوى على تحملها إلا قادر عليها، أو جاهل بها، وأنا حتى هذه اللحظة لا أقوى عليها، ولا أجهلها!.

الحياة.. أوهام لا تنتهى

فى أحيان كثيرة، يخطر لى أن حياتنا ليست إلا وهما.. وأن ما فيها من كائنات حية، وحركة وامتداد زمنى، وأبعاد، ومسافات ودوران للأرض ما هو إلا هواجس، أو كابوس، أو أضغاث أحلام!

وهذا الخاطر يسيطر على نفسى كلما أصابنى مرض، أو فقدت صديقًا.. فقدته ميتًا، أو حيًّا..!

وحياتى مشحونة دائمًا بنوبات المرض، وعدد الأصدقاء الذين فقدتهم موتى، أقل من عدد الأصدقاء الذين أفقدهم وهم أحياء.

وكم أتساءل فى مرارة: ما هذه الحياة التى لا أعرف كيف بدأت، ولا لماذا بدأت.. ثم أراها وهى تنتهى، دون أن أدرك لماذا تنتهى؟

ونهاية الحياة بالنسبة لى ليست أن أموت، ولكن أن تختنق

أحلامى، ومشاعرى وتتعقب الخيبة آمالى.. فأرى أن مشاعر الحب، والخير، والوفاء التى ينبض بها قلبى، وتتجه فى فرحة ونشوة إلى كل الناس، قد تحولت عند بعض الناس إلى صخب من الشر، والحقد والكراهية يمزق أعصابى، ويضغط دمى، ويشيع فى نفسى قلقًا، وخوفًا، وكآبة لا تعترينى إلا عندما أسمع صفارة إنذار بغارة جوية، أو نعيب بومة أو اللحن المميز للبرنامج الإذاعى، «خمسة فرفشة»!

وفى الساعات القليلة التى أستريح فيها من شدة مرضى، وحدة الغدر. تبدو لى الحياة أجل من أن يشوهها الحقد، والجحود، وأقوى من أن ينال منها شىء.. فكل شىء مسخر لبقائها.. الموت نفسه فى خدمتها، فهو عندما يقبض روحًا إنما يفسح المجال لخلق روح أكثر جدة، وأقوى حيوية.. إن فناء ناس، وخلق ناس آخرين يجدد خلايا الحياة، وينشط غددها، وينظم دورتها الدموية، ويجعلها دائمًا فى ريعان الشباب.

وأمس زارنى صديق يعانى ما أعانيه من هواجس، إذا ما حزنت، أو انتابنى مرض، وعندما زارنى كنت أعيش فى جو من الرضا، والتفاؤل والطمأنينة، وأخذت أبدد أوهامه

ومخاوفه بتجاربى فى الحياة وهى تجارب تجمع بين الهزيمة والنصر، واليأس والأمل، والدمعة والابتسامة..

قال لى بنبرة شاكية إن زميله فى العمل دس له عند مدير المكتب.

فسألته: وماذا جرى؟ فقال: لا شيء.. فقد عرف المدير الحقيقة وأثنى على كفايتى ونزاهتى، وأقصى عنه الموظف الدساس..

- ولماذا أنت حزين؟ ألا تكفيك هذه النتيجة؟

قال: أؤكد لك أنى تألمت لما أصاب زميلى من عقاب، ولما أصابه من انتكاس فى أخلاقه وعواطفه. وعجبت كيف يصنع معى هذا وهو صديق منذ عهد الدراسة، ولقد ساعدته فى عمله، ووقفت إلى جانبه فى أزمات عصيبة.

واستطرد يقول:

أليس عجيبًا أن تحسن إلى الناس، فيسيئوا إليك.

قلت له: لا تظلم الناس فهم ليسوا جميعًا مثل زميلك، إذ بينهم من يغلب عليهم الخير فيمنحك الحب والود والغفران، وبينهم من يغلب عليه الشر فهو يحقد عليك لكل

سبب، وبدون سبب، إذا كان ضعيفًا ولم تعطف عليه كما يريد، حقد عليك.. وإذا عطفت عليه كما يشاء وأكثر مما يشاء حقد عليك لأنك قوى، وهو ضعيف.

وقد علمتنى التجارب أن أكون دائمًا مع المظلوم، والذكى، وصاحب الموهبة، يستوى فى ذلك من تنطوى روحه على الخبث ومن تنطوى روحه على الطيبة.. ولكى أتفادى أذى الجانحين إلى الشر تعودت أن أكتم عنهم ما أقدمه لهم من خير حتى لا يتعقبونى بحقدهم.. أعرف واحدًا من الناس أنقذته من المحنة أكثر من مرة.. وعرف من غيرى أنى وقفت معه فى ثلاث مناسبات، فشكر لى موقفى منه، وأخجلنى بعبارته المهذبة، ورنة صوته الحزين، وإشاراته المستكينة، ونظراته التى تنبض بالحنان والدموع، وقد رأى أن يوقع بينى وبين زملائى وبينى وبين رؤسائى فى العمل، وكنت شابا صغيرًا، ولكنى لم أكن أحمق فلم أحفل به وبغتة نهشنى وعضنى، فلم أحقد عليه، وقلت لعله ظن أنه صار صاحب أظفار وأنياب، وأراد أن يجرب قدرته على النهش والعض فجربها فى الرجل الذى يقف إلى جواره.

وقال لى أصدقائى: لماذا لا تصارحه بأنك منعت عنه

الأذى عشر مرات فى سنة واحدة، مع أنه لم يكن يومًا ما صديقًا لك؟.

وقلت لأصدقائى: إذا كان قد نهشنى وعضنى بعد ما عرف أنى وقفت معه ثلاث مرات فقط، فماذا عساه يصنع بى إذا عرف أنى وقفت معه عشر مرات؟ إنه فى هذه الحالة لن يكتفى بنهشى وعضى، ولكنه سيحاول قتلى.

وشكا لى صديق من أن زوجته أم أولاده تركته، وانفصلت عنه، ونازعته أمام المحاكم، وانتهى النزاع بالطلاق..

وسألته: هل كنت تحبها؟ فقال: ومازلت أحبها.

قلت: إن الطلاق، مثل الزواج، مثل الموت، قدر لا حيلة لنا فيه.. وأنت على أية حال أحسن حظًا من فلان.. فقد ضحى بثروته ومواهبه وأعماله الناجحة فى سبيل زوجته، كانت مريضة إلى حد اليأس من الشفاء، أو تخفيف ضربات الألم، فطاف بها بلاد العالم، ودخل معها أكبر المستشفيات، واقتضاه مرضها المخيف أن يسهر على راحتها إذا نامت، وأن يسهر معها إذا أرقت، وكان يشعر بآلامها دون أن يتناول ما تتناوله من الأدوية المسكنة للألم.. وبعد خمس

سنوات من العذاب نجت من المرض بمعجزة، وعادت معه إلى بيته، ولكنها لم تعش فى البيت، وعاشت فى بيت آخر، مع شخص آخر، فطلقها ومازال حتى هذه اللحظة يتلوى قلبه من الحزن، واللوعة والذهول!

وهدأ صديق واسترد إيمانه بالإنسانية والإنسان.. وقال إذا كان الجحود يحض على الكفر، فالوفاء يدفع إلى الإيمان، والحياة فيها جحود وفيها وفاء، فلماذا نرضخ للجحود ونكفر بالحياة، ولماذا لا يستهوينا الوفاء ونؤمن بالحياة؟

وسألته: كيف حال صحتك الآن؟ فقال: حالتى الصحية طيبة جدًّا.

ألم تعد تشكو من الانقباض والأرق ووجع الظهر والصدر؟

قال الصديق: لقد زالت هذه الأعراض من يوم أن تحدثت مع الدكتور «ميم» فى التليفون.. والفضل لك.. فقد أعطيتنى رقم البيت الذى كان يعود فيه أحد مرضاه.. ولما شرحت له حالتى طمأننى، ونصحنى بأن أستمر فى تناول الدواء الذى وصفه لى من قبل! فضحكت فى وجه صديق

بصورة غير عادية، وسألني : لماذا تضحك هكذا؟ وكتمت ضحكي، ونقلت الحديث إلى موضوع آخر..

وعندما يقرأ صديق هذه العبارات سيعلم لماذا ضحكت؟..

كان صديق يشكو من آلام فى ظهره وصدره، وتوهم أنه مريض بالقلب، فدخل المستشفى، وأجرى عدة فحوص وتحليلات وأشعة، وزار عددًا كبيرًا من الأطباء، فطمأنوه على حالته، ولكنه لم يطمئن. وقال لى إنه يريد أن يعرض نفسه على الدكتور «ميم» بالذات.. وأنا أعلم أن الوصول إلى الدكتور «ميم» يحتاج إلى أن يستخدم المريض صاروخًا يخترق به فضاء الأيام والأسابيع! واستطعنا أن نجد هذا الصاروخ ووصلنا إلى الدكتور «ميم» وقام بدراسة الصديق المريض. ودراسة تقارير الأطباء والمعامل، وأكد أن صديقنا لا يحتاج إلا إلى تناول ثلاث حبات من «فيتامين ب» كل يوم.

واطمأن الصديق، ومارس حياته بتفاؤل وثقة، ومنذ أسبوع اتصل بى ليلا، بواسطة تليفون الجريدة التى أعمل بها، وسألنى أين الدكتور «ميم» وقلت له إن العقبات التى وجدناها

فى العثور عليه أول مرة، تجعلنى أيأس من البحث عنه مرة أخرى!

قال: ولكنى مريض.. عندى أرق شديد، وإذا لم يرنى الدكتور «ميم» هذه الليلة، فلن أعيش حتى أرى الصباح!

وقلت له إن الدكتور «ميم» يزور الآن أحد المرضى، ويمكنك الاتصال به تليفونيًا فى هذا الرقم، وأعطيته رقم تليفونى الخاص.

وبعد دقيقتين دق جرس تليفونى وجرى الحديث بين صديق وبينى على النحو الآتى:

الصديق: الدكتور «ميم» موجود؟

- لحظة من فضلك؟

ثم ارتفع صوتى بنبرة مختلفة عن نبرتى الطبيعية، وقلت: أنا الدكتور «ميم».

الصديق. لا تؤاخذنى.. إذا كنت قد طلبتك فى وقت غير مناسب، وظرف غير مناسب..

- العفو. أنت مواظب على تناول «فيتامين ب».

الصديق : نعم.. لكنى شعرت الليلة بأرق، مصحوب بألم خفيف فى الظهر.

اشرب فنجانًا من النعناع الساخن، واستمر فى تناول فيتامين ب وبعد أسبوع اتصل بى لأراك فى العيادة.

الصديق : متشكر يا دكتور.

وفى اليوم التالى اتصلت بصديق وسألته : ماذا صنع أمس، فحكى لى ما دار بينه وبين الدكتور «ميم».. وقال : إن هذا الرجل ساحر.. المكالمة التليفونية معه أراحت أعصابى وهيأت لى نومًا عميقًا مريحًا.

ولما سألته أمس، متى تتصل بالدكتور «ميم» ؟

قال : ليس الآن فأنا بخير والحمد لله !

ما أشق هؤلاء الذين يمرضون بالوهم فيلجأون إلى الطبيب والدواء.. مع أن مرض الوهم لا علاج له إلا الوهم !

وأنا واحد من هؤلاء الأشقياء !

من أين.. وإلى أين؟

السؤال الذى شغل أذهان الحكماء منذ الأزل هو: من أين نحن؟ وإلى أين المصير؟ كيف بدأ الكون وكيف ينتهى؟

ومساكين هؤلاء الحكماء... إن السؤال مازال حتى هذه اللحظة يقرع رؤوسهم كمطرقة، وينفذ فى عقولهم كمسمار.. وعبثًا يحاولون أن يجدوا الجواب الذى يجنبهم ضربات المطرقة، أو يخفف من وخزات المسمار!

وفى هذا اليوم بدأ سؤال «من أين؟ وإلى أين؟» يتسلل إلى ذهنى، كما لو كنت فيلسوفًا، أو حكيمًا.. ولم يأخذنى الزهو، فإن مأساة الكون والكائنات، لم تكن مثار السؤال، وإنما الذى أثار سؤالى مأساة أخرى عشت جزءًا كبيرًا من بدايتها، ونهايتها.. وأعيش الآن فى نتائجها! وليس عسيرًا أن أعرف الجواب عن سؤالى.. فقد وجدت الجواب، ووجده معى الواقع والتاريخ!

إنها مأساة الاحتلال البريطانى لبلدى. الاحتلال الذى دام أكثر من سبعين عامًا. وقامت فى وجهه انتفاضات شعبية ثائرة، تحولت إلى مناورات سياسية، وتولاها الزعماء والأحزاب، وكان رد الفعل الطبيعى لهذه المناورات، أن بقيت الجيوش المحتلة فى بلادنا، وأصبح جلاء القوات البريطانية عن أراضينا لا يتجاوز حدود الأمنية الجريئة، والأمل المستحيل!

فمنذ عام ١٨٨٢، عندما غزا الجيش البريطانى أرضنا ليحمى عرش الخديو توفيق من ثورة عرابى.. ثورة الشعب على السلطة الدخيلة.. التى سامته الخسف والهوان، فجعلت من حثالة الكرد والأتراك أهل السيطرة فى الجيش، وجعلت منهم ومن اليهود، وشراذم الأجانب حكامًا يأخذون من الفلاح عرقه وكدحه بالقوة والإرهاب، ويقدمونه إلى الخديو أموالا طائلة لا يخصص منها لأفراد الشعب إلا ثمن السياط التى يلهب بها ظهورهم - كان الشعب مقوس الظهر، أصفر الجبين يتصبب عرقًا، ويتضور جوعًا. ومع ذلك تجاوب مع ثورة عرابى وإخوانه الضباط، عندما تمردوا على الظلم، وثاروا فى وجه الخديو، وطالبوا بحق الشعب فى أن يتولى بنفسه قيادة جيشه. ونزل الخديو مرغمًا على إرادة الجيش التى هى إرادة

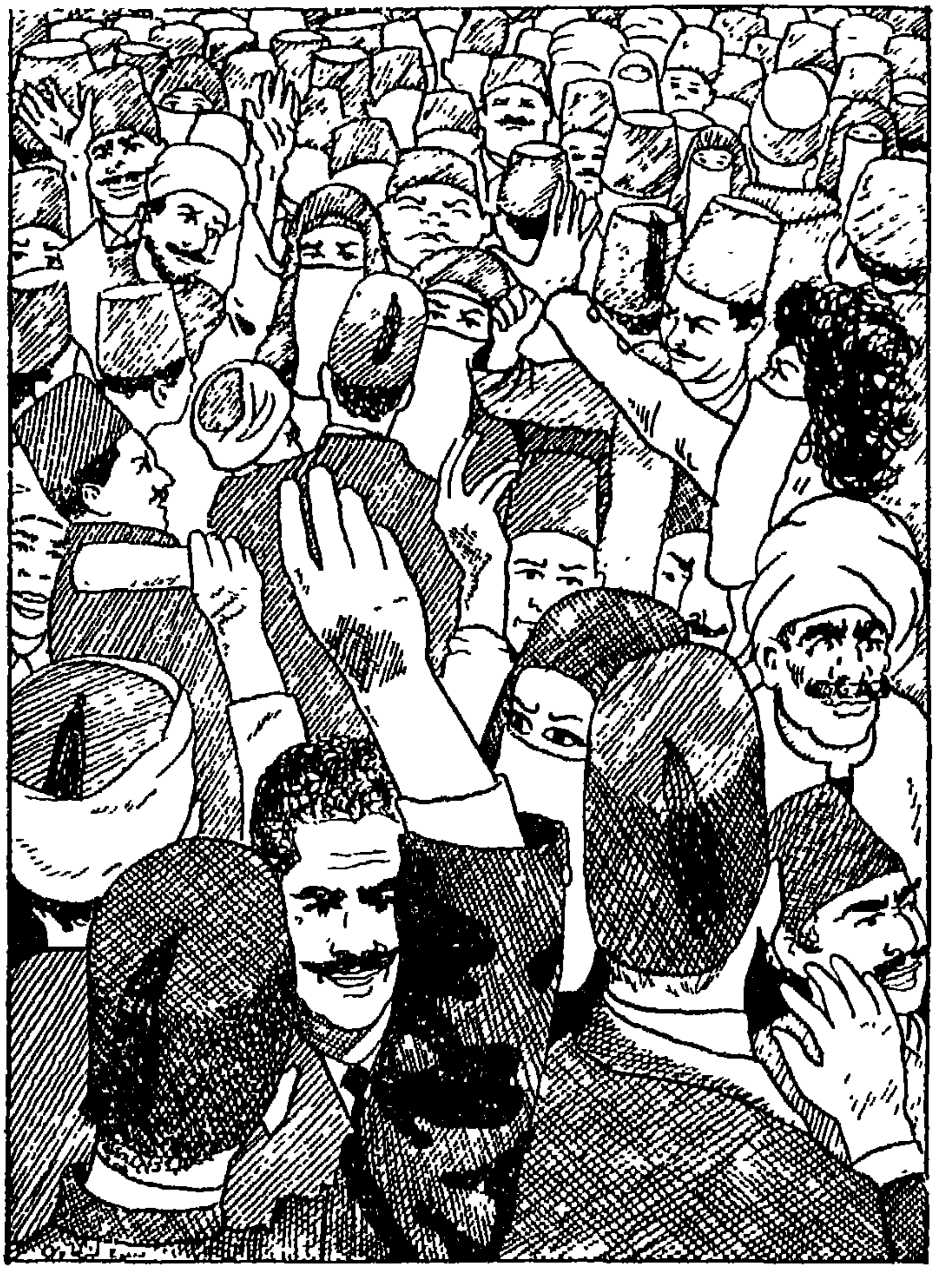

وجاءت حركة ١٩١٩ [ص ٢٣]

الشعب، ولكن ما لبث أن اتصل بإنجلترا. وطلب حمايته من الثائرين، وجاءت الجيوش البريطانية الغازية وقاومها الشعب والجيش. وانهزمنا، لا لأننا ضعفاء عسكريًا، فعندما يخوض الشعب المعركة يصبح بلا سلاح - أقوى من أى جيش مزود بأفتك الأسلحة. وإنما ينهزم الشعب إذا انبعث من صميمه خيانة، أو يأس، أو انحراف. وقد انهزمنا، لأن بعض أعوان عرابى خانوه. وباعوا أنفسهم للقوات المحتلة!

منذ ذلك التاريخ، كان يحكمنا خديو ويستمد شرعية سلطته من دولة أجنبية هى تركيا.. وتحميه فى بلادنا قوات دولة أجنبية هى بريطانيا. وأصبحنا غرباء فى بلادنا. كنا فى وطننا أشبه بلاجئين تسومهم الدولة التى لجأنا إليها الخسف، وسوء العذاب.

كانت مصر بالنسبة إلينا، سجنًا كبيرًا، ترسف فيه خطواتنا، وكان حتمًا علينا نحن المسجونين أن نساق إلى الجبل، فنقطع الصخور ونحملها على أكتافنا، ونقف فى الحقول لنحرثها ونزرعها، ويجنى غيرنا ثمارها. كنا شعبًا مخنوق الخطى، لاهث الأنفاس، وبرغم ذلك لم نستسلم. ولكن قاومنا،

وظهرت حركة مصطفى كامل، واتجهت إلى تأليب الرأى العام على الجرائم التى ترتكبها بريطانيا فى مصر، وكان الشعب ينفعل بحماسة الزعيم الشاب، وتألف الحزب الوطنى الجديد. وكان واضحًا من منهجه أنه يريد جلاء الإنجليز. ويؤيد بقاء السلطة الشرعية أى الخديو، ويتمسك بالخلافة كمظهر للوحدة الإسلامية.

وظهر حزب الإصلاح. وحزب الأمة، وأحزاب أخرى بأسماء متعددة، وكانت هذه الأحزاب جميعًا تميل إلى مهادنة الإنجليز حتى تتخلص من حكم أسرة محمد على، وكانت تؤمن بأن جلاء الاحتلال يمكن أن يتم بالتفاهم والمساومة والمفاوضة مع المحتلين.. وبدلا من أن تتحد الجهود لمقاومة الاحتلال ومقاومة القصر، نشبت المعارك بين الساسة والأحزاب وظلت مصر يتنازعها حكمان أجنبيان. أحدهما مقره قصر الدوبارة. والآخر مقره قصر عابدين!

ثم جاءت حركة سنة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول وتم تأليف الوفد المصرى. وكان مذهبه السعى إلى الاستقلال ما وجد إلى ذلك سبيلا. وقد بدأت هذه الحركة بالمفاوضة مع

الإنجليز. وانتهت بالمفاوضة مع الإنجليز! وبقى الإنجليز كما هم يحتلون أرضنا، ويوجهون سياستنا، الداخلية والخارجية. وكلما ثرنا على معاهدة من معاهداتهم، دخلوا معنا فى مفاوضات للحصول على معاهدة أخرى. وكل هذه المعاهدات تعترف لنا بنوع من الاستقلال، وتسلبنا كل أنواع الاستقلال، كلها كانت حقوقًا والتزامات، الحقوق للإنجليز، والالتزامات لنا!

وقد تفرع عن الوفد أحزاب حاربت الوفد فى أشخاصه، وسارت على منهاجه، فهى تفاوض لتحصل على المعاهدة، وتحصل على تأليف الوزارة. وتكوين أغلبية برلمانية لها!

وأدرك الشعب ما فى هذه الأساليب جميعًا من سلبية قاتلة لآماله وطموحه، فكان يعلن سخطه على الحكومة والمعارضة على القصر والاحتلال. السخط هو الملامح الواضحة فى وجه الشعب. ولكن السخط يجب أن يتحول إلى عمل إيجابى، وإلا كان هو الآخر منهجًا لحزب يتكلم ولا يعمل، ويدخل مع الإنجليز فى مساومات هدفها أن يظفر بكراسى الحكم، وبالأغلبية البرلمانية فى ظل الملك وفى حماية المندوب السامى البريطانى.

وكانت ثورة ٢٣ يوليو من عام ١٩٥٢ لم يقم بها ساسة، أو زعماء ولكن قام بها شبان من الجيش لا يعرف الشعب أسماءهم.. وحاصرت القوات الثائرة، قصور الملك، ودار الإذاعة، وفى الساعة السابعة صباحًا أذاع أنور السادات أول بيان لهم ووضع الناس أيديهم على قلوبهم خوفًا من أن يستعين الملك بقوات الاحتلال القائمة فى القنال، على تحطيم الثورة والثائرين.. ولكن لم تمض ساعة، بل دقائق، حتى كانت مصر من أقصاها إلى أقصاها، كتائب ضخمة انضمت إلى الضباط الأحرار. فقد أحس الشعب أن هذه الثورة تعبر بصدق، وعمق، ووضوح عن استنكاره لانحلال الملك، واحتلال الإنجليز، وتهاون الساسة والأحزاب فى حق البلد، وكرامته، وعزته.

وسارت الثورة بخطى واثقة ثابتة، تملى إرادتها، فخلعت الملك من العرش، ودحرجت تاجه، وأحس النفوذ الأمريكى والاحتلال البريطانى أن هذه ليست ثورة مئات من الضباط، ولكن ثورة ملايين الشعب. وحاول الديبلوماسيون الأجانب إخماد الثورة، وكبح جماحها، بالطرق السلمية الملتوية. ولكنهم وجدوا أن إصرار الثائرين ليس إصرارًا فرديًا، ولكنه إصرار

شعبي جماعى. فانتظروا أن تتاح لهم فرصة يحولون فيها وطنية الثورة إلى سياسة، ويستخدمون مع القادة الجدد أساليب المساومة التى استخدموها مع الساسة القدامى!

وأعلن الزعيم الخالد جمال عبد الناصر فى أول تصريح له نشرته صحف العالم وإذاعاته، أن على الاستعمار أن يحمل عصاه ويرحل!

وكان ما قاله قائد الثورة أول ضوء كشف خطة الثائرين تجاه الاحتلال. فقد كان معروفًا أننا مرتبطون بمعاهدة تشدنا بعربة الإنجليز. وأن مقاومة الثائرين للأحزاب والإقطاع والفساد، لا تدع لهم وقتًا يتفرغون فيه لمحاربة الإنجليز.. وليس هذا فحسب، فالثورة الجديدة لم تحبس نظرتها داخل مصر. ولكن أطلقت نظراتها، واهتماماتها إلى الجنوب والشمال، وإلى المجال الدولى، وإلى إعادة فلسطين.. فكيف يمكن أن تحارب فى كل هذه الجبهات، وتفتح جبهة جديدة، هى جلاء القوات البريطانية، التى تحتل أرض مصر بوثيقة وقعها ساسة مصر!

ولكن الثورة رأت أن هذه كلها ليست جبهات متعددة،

إنما هى جبهة واحدة، تتألف من قوى مختلفة. فأصرت على الجلاء، وتصفية قاعدة قناة السويس، ودخلت بريطانيا فى مفاوضات مع الساسة الجدد ولكنهم لم يكونوا ساسة بل كانوا وطنيين. فلم يقبلوا النصوص المطاطة، وتمسكوا بأن تكون النصوص كإرادتهم من صلب، لا يتلوى ولا يلين وفى ١٨ يونية عام ١٩٥٦ تم جلاء آخر جندى بريطانى من أرضنا، ورفع الزعيم الخالد جمال عبد الناصر علم مصر، فى المكان الذى كان يرفرف فيه علم بريطانيا.

ولم يمض على جلاء القوات البريطانية بضعة أشهر، حتى عادت هذه القوات، ومعها قوات فرنسا وإسرائيل، لتغزو بلادنا، بأسلحة كان حلف الأطلنطى قد أعدها لمحاربة روسيا!

وانهزم الغزاة. فعندما رفض الزعيم الخالد جمال عبد الناصر إنذار الدول الغازية، وصلح : سنحارب، كان يعبر عن نبضات القلوب وخلجات الأنفس لا فى مصر وحدها، ولكن فى البلاد العربية كلها. وحاربنا، وانتصرنا وأصبحت بلادنا لنا، وانبعثت من نهضتنا شرارات الحرية، والاشتراكية والحياد الإيجابى، توقد النار فى آسيا وإفريقيا،

فتحرق الاستعمار، والرجعية، وتضىء المشاعل للشعوب التى تريد حريتها.

إن الذين عاشوا فى عصر الاحتلال، أحسوا الغربة فى بلادهم لأنها لم تكن لهم.. وهم فى عيد الجلاء، يحسون غربة من نوع جديد.. إن مصر التى عرفوها لم تكن هكذا.. أين الجنود الإنجليز الذين كانوا يطأون الشوارع بأحذيتهم فتنخلع منهم القلوب رعبًا وخشية؟ أين السفير البريطانى الذى كان يعين الوزارات ويقيلها باسم مستعار هو اسم الملك؟ أين القوات البريطانية التى كانت تحتل القاهرة، والإسكندرية، ومنطقة الإسماعيلية؟

أين تلك الأيام التى كان يحكم فيها الوزارات مستشار أو مفتش. فإذا انتقل إلى مكان فى أى بلد، ارتعدت منه الفرائص.. وكان بعضهم يذهب إلى مكان بشخصه، ويذهب إلى مكان آخر فى الوقت نفسه بقبعته يحملها مندوب عنه! وكان ذعر الناس من القبعة يساوى ذعرهم من صاحبها!

كان الذين ينادون بالجلاء، مجانين فى نظر العقلاء، مكانهم الطبيعى مستشفى المجاذيب!

وقد تحقق الحلم المجنون، وأصبح المستحيل حقيقة، ولم يعد فى مصر احتلال أجنبى، ولا سيطرة دخيلة. فالثورة التى قامت لم تكن ثورة شعارات وأمانى، ولكن كانت ثورة مبادئ وإرادة لم تكن ثورة كلام، ولكن كانت ثورة عمل.

تحية للثورة التى حررت بلادى من الاستعمار. تحية للصيحة الأولى التى أطلقها الزعيم الخالد جمال: على الاستعمار أن يحمل عصاه فوق كتفيه ويرحل، وللصيحة الأخيرة التى أطلقها الزعيم الخالد جمال: سنحارب!

فمن هاتين الصيحتين اندفع الشعب بكل ما فيه من قوة وعناد فى العمل على تطهير بلاده من الاحتلال الذى بدأ فى عام ١٨٨٢، والاحتلال الذى عاد من جديد فى أواخر عام ١٩٥٦.

إن هذا الجيل يتملكه الزهو وهو يرى بلده ينمو، وينبض ويتحرك ويصعد، ولكن أمثالى من أبناء الجيل الماضى يتملكهم ما هو أكبر من الزهو. فقد شهد بلدنا والأغلال تلف عنقه، ويديه، ورجليه. ورأيناه وهو يكسر الأغلال.. شهدناه فى الأسر، ورأيناه حرًّا. شهدناه فى الهوة، ورأيناه فى القمة.

عقوبة الموت.. وعقوبة الحياة!

هل هناك خلاف على أن قتل النفس البريئة جريمة يعاقب عليها الدين والقانون؟ لا.. ومع ذلك فهناك جريمة قتل نعاقب من يقترفها بالموت، وجريمة قتل نعاقب من يرتكبها بالسجن، وهكذا تتفاوت الأحكام بالنسبة إلى قاتلين، تقف جريمة كل منهما مع الأخرى، على قدم المساواة، لماذا لأننا فى أحكامنا لا نخضع لنص جامد أعمى، ولكن نخضع لظروف متحركة بصيرة، فمن يزهق روحًا دفاعًا عن نفسه أو عرضه، أو وطنه. ليس كمن يقتل بدافع من السرقة، أو التشفى، أو شذوذ المزاج.

ومن يسرق لأنه جائع، ليس كمن يسرق لأنه يطمع فى أن ينمى ثراءه الفاحش!

فالجريمتان قد تتشابهان فى الصورة والشكل، ولكنهما تختلفان فى الحافز، والجو، والهدف، ومن أجل هذا تتباين الأحكام فى جريمة واحدة ثابتة، فيحكم القاضى بإعدام قاتل،

ويحكم القاضي نفسه بتبرئة قاتل آخر!

ولكن هذا استطراد، قد يبعدنى عن موضوعى الذى أريد أن أعالجه، والموضوع حادث قتل، وقع هنا فى بلدنا منذ حين، واعترف القاتل بكل شيء، وإذا كان الاعتراف سيد أدلة الإدانة، فهو هنا سيد أدلة البراءة.. والقاتل سيدة، أم قتلت جنينها عمدًا، وأثبت المحضر الرسمى لتحقيق النيابة أنها بذلت فى سبيل ذلك محاولات كثيرة، حملت أشياء ثقيلة فوق بطنها، وأرهقت نفسها بأعمال مضنية، ولما فشلت محاولاتها فى التخلص من الجنين، لجأت إلى طريقة قاسية فأصيبت بنزيف شديد، وأصبحت على حافة الموت، وقد اعترفت أمام النيابة العامة بأنها قتلت جنينها، وبررت فعلتها بأنها منذ اليوم الأول من زواجها دب الخلاف بينها وبين زوجها، فلما عرفت أنها حامل، خافت أن يكون حملها منه سببًا فى الإبقاء على حياتها الزوجية، التى تمارسها على مضض.

ورأت النيابة أن التهمة لاصقة بالأم، تهمة إجهاض نفسها، وقتل جنينها، ولكن النيابة رأت أيضًا أن تحفظ القضية، وجاء فى قرار الحفظ أن الباعث على الإجهاض هو رغبة الأم فى إضعاف الصلة بينها وبين زوجها، لعلمها بأنه

لا يمكن أن تستمر فى الحياة معه. ولاعتقادها بأن إنجابها منه سيربط بينهما، على حين أنها راغبة فى الانفصال عنه، زيادة على أنها جنبت وليدها الشقاء الذى كان ينتظره إذا ما تم طلاقها من زوجها، ونشأ هذا الطفل بعيدًا عن أبيه فى جو مشبع بالنزاع، وذهبت النيابة إلى أنه يكفى الزوجة عقابًا لها، حرمانها من فلذة كبدها، وأشارت إلى أن تقديم هذه السيدة إلى المحاكمة سيقضى على مستقبلها.

أثار هذا الحادث فى رأسى ألوانًا شتى من الأفكار والتأملات.

مثلا.. ماذا يكون تصرف النيابة إزاء رجل يزهق روح ابنه الجنين؟ هل تحفظ القضية بالنسبة إلى الأب، كما حفظتها بالنسبة إلى الأم؟ إن القياس هنا يبدو متساويًا، فالأب والأم كلاهما واحد. وقد يرى المنطق أن من حق من أوجد أن يتصرف فيما أوجده! ولكن هل صحيح أن مكانة الأب من الطفل تساوى مكانة الأم؟ إن بعض المفكرين القدامى حددوا الفرق بين اليقين والثقة، بأن اليقين هو أن الأم والدة.. والثقة هى أن الأب والد، فالأم إذا أساءت التصرف فى

ولدها أحسنا الظن بنيتها، لأننا على يقين من أنها أم الولد، ولكن الوالد إذا أساء التصرف فى ابنه، فإن سوء الظن يمسكه من تلابيبه، لأن الأبوة ليست يقينًا يصمد أمام الظنون، ولكنها ثقة تتعرض للانهيار.

والرأى عندى أن الأبوة مثل الأمومة يقين، وأن إقدام والد أو أم على قتل الابن، مثل إقدام الابن على قتل أمه وأبيه، دافعه الحقيق الانحراف النفسى، أو الانحراف الذهنى.

وأنا أومن بالحياة، وأومن بحق كل إنسان فى أن يحيا، وأنه ليس لأحد أن يحرم كائنًا حياته إلا بالطريقة التى رسمتها القوانين، وما أكثر ما نضيق بحياتنا، ونشق، ونتعذب، ولكن لا ينبغى أن نهرب من الحياة بأن ننتحر، أو نقتل سوانا، ولو بدافع الرحمة والشفقة!

والذين ضاقوا بالحياة ألوان شتى، بينهم الأتقياء، والملحدون، والحكماء، والحمق.. الأتقياء استعذبوا الألم واحتملوه، والملحدون اكتفوا بالسخط والتمرد، والحكماء فكروا وتأملوا، والحمق هم وحدهم الذين لجأوا إلى الانتحار!

وكم توارد فى أذهان بعض الفلاسفة أن الحياة ليست

فرصة للأحياء ولكنها حكم بإدانتهم.. حكم عليهم بأن يعيشوا!

ولكن هذا الذى ورد فى الأذهان فكرة، رأيناه نظرية تطبقها أم على جنينها.. فقد رأت أن تنقذ ابنها من جريمة الحياة.. فحكمت له بالموت!

إننى أتوقع أن ينبرى أحد، ويطعن فى هذا الحكم، على أساس أن الأم ليست قاضية حتى تحكم بإزهاق روح، ولو كانت هذه الروح جنينها.. أو على أساس أنها قاض تحيز لابنه.. فحكم له بالموت، بدلا من أن يحكم عليه بالحياة!

أيهما أقسى : الموت.. أم الحياة؟

عانيت فى هذا اليوم من اللوعة والانقباض ما لم أعان مثله فى يوم من الأيام..

كنت فى المستشفى، وهبط الأطباء من الدور العلوى، بعد ما رأوا المريض الذى جئنا لنسأل عنه، و لا نستطيع أن نراه.

ورسم الأطباء على شفاههم الابتسامات التى ظلوا شهورًا طويلة يظهرون بها أمام الناس، فهى قناع يخفى الحقيقة المؤلمة.. وهى أن الموت أصبح الزائر الوحيد الذى لا يستطيع أحد منعه من دخول غرفة المريض!

وصحبت أحد الأطباء وهو يغادر المستشفى، ولم يكد يخلو بى، حتى اختفت ابتسامته، واغرورقت عيناه بالدموع.

وسألته : أليس هناك أمل، رجاء، معجزة؟ فأجاب : العلم يقول لا، والتجربة تقولا لا، والله وحده هو القادر على

أن يقول نعم، ولكن يظهر أنه سبحانه لا يريد أن يقولها. فقد أصبح الموت يعيش مع المريض. ويعيش فى دمه وأنفاسه وكل ما فى جسمه المرهق الممزق، من قلب، وكبد، وكليتين، وأمعاء، وشرايين.

واستطرد الطبيب يقول: إننا لا نعالج هذا الإنسان الرقيق بالطب والعلم، ولكن نعالجه بقوة الإرادة إرادتنا وإرادته، وإرادة الذين يحبونه، ما أكثرهم!.. طفله المريض بالشلل، بناته الصغار أمه، زوجته إخوته، رفاقه فى الثورة، زملاؤه فى العمل، أصدقاؤه فى كل مكان.

وخنقت العبرات صوتى، وأحسست أن للدموع قبضة تضغط رأسى وعنقى. وحاولت أن أهرب من الواقع المر إلى أمل حلو، إلى وهم، إلى سراب، فلم أجد غير اليأس. وكم كنت أجد فى اليأس راحة، ولكن يأس اليوم، كان نارًا تكوى قلبى.

وعدت إلى المستشفى صامتًا. وكل من حولى صامت. لقد تحول المستشفى إلى ضريح.

صحوة الموت

اتصلت فى اليوم التالى بالمستشفى فى الساعة العاشرة صباحًا، وسألت كيف الحال؟ وقيل لى : لقد حدثت المعجزة.. فقد تحرك وتكلم.

وفرحت بما سمعته فى التليفون، ولكن فرحى كان كعمر المريض الحبيب قصيرًا..

فقبل الساعة الثانية عشرة، دق جرس التليفون فى بيتى، وكانت دقاته أشبه بنعيق الغراب، وسمعت النبأ الجسيم.

بعد ساعتين كنت فى المستشفى، لا أحد يستطيع أن يميز بين الإخوة، والأبناء، والأطباء والأصدقاء، والممرضين والموظفين والزوار العاديين، فقد خلقت بينهم الدموع والانفعالات مشابهة فى الملامح، والقسمات والشعور.

وأخذت تأملاتى تقتحم أحزانى. وتلهب أعصابى بالأسئلة العنيفة المضنية : إذا كانت هذه هى نهاية كل حى فلماذا نخاف الموت أو نبكى على من مات؟ إن الحياة عذاب والموت

راحة، الحياة سجن والموت حرية، فكيف نتشبث بالعذاب والسجن، ونتهيب الراحة والحرية؟

أيهما أقسى: الحياة أم الموت؟ كلاهما قاس. الحياة قاسية على من يشقيهم المرض. والموت قاس على من يعيش ويفارقه أحباؤه. يفارقونه وفى رءوسهم وعواطفهم كثير يريدون أن يمنحوه للحياة!

الحب الحزين

ليست هذه جنازة تضم عشرات الألوف مشوا وراء نعش. وعشرات الألوف وقفوا فوق الأرصفة وأطلوا من النوافذ والشرفات وقد استولى عليهم الحزن والوجوم والكآبة. وإنما هذه مظاهرة شعبية إنسانية للقيم والمبادئ التى كان صلاح سالم يحمل لواءها مع قائده وقائدنا جمال عبد الناصر.

وعندما رأيت جمال عبد الناصر فى المستشفى يبكى صديقه بدمعه وقلبه رأيت فيه الإنسان. وعندما قرأت بيانه الذى دعا فيه الأمة إلى أن تشاركه حزنه على صديقه وزميله تمثل أمامى وفاء الصديق وعظمة الزعيم، وعندما شاهدت هذه الجموع

الهائلة تشيع جنازة صلاح سالم شعرت بأن الجماهير لا تودع راحلا، ولكن تصنع بعبراتها، ونحيبها تمثالا للمعانى التى يرمز إليها صلاح سالم العبقرى الثائر.

كانت الجنازة الرهيبة المهيبة، استفتاء شعبيًّا منح فيه الشعب ثقته المطلقة بالثورة التى كان صلاح سالم واحدًا من جنودها البسلاء، وعبر فيها عن حبه الحزين لصلاح الإنسان الجديد بأن نحبه دائمًا، وأن نحزن عليه إلى الأبد.

إلى أين يا أصدقاء...؟

عشت لحظات رهيبة نهبًا لليأس، ونهبًا للأمل.. كنت أظن أن الأمل أرحم من اليأس، ولكن ظنى خاب، فقد شعرت بقسوة الأمل تضغط دمى، وتحرق أعصابى..

قيل لنا فى أول الليل إن الطائرة ضلت الطريق بين جنيف وروما وأن احتمال سقوطها أو احتراقها ليس هو الاحتمال الوحيد.. ثم أذاعت وكالات الأنباء أن الطائرة عادت إلى جنيف فعلا.. ولم تمض دقائق حتى جاءت برقية تؤكد أن الطائرة مفقودة.. وكانت قلوبنا تعلو وتهبط مع الأمل فى العثور على الطائرة، أو الأمل فى أن تكون قد اضطرت إلى النزول فى مكان ما دون أن يصاب ركابها بسوء.. وأخيرًا عرفنا الحقيقة المجردة من خداع الأمل، عرفنا النبأ الفاجع.. عرفنا أن الطائرة وركاب الطائرة ذهبوا جميعًا مع الريح.. وأن بين ركابها عربيا واحدًا هو زميلى وصديق فرج جبران.

ولجأت إلى دموعى ولكنى لم أستطع البكاء.. كانت

الحسرة تملأ صدرى، أحسست أن جفونى لا تنزف دمعًا، ولكن تنزف سعيرًا.

وأخذت أحدق فى غير شيء بنظرات غبية بلهاء. ما جدوى أن نبكى أو لا نبكى؟ ما جدوى أن نتعذب بالأمل الخادع، أو نتحصن باليأس المريح؟ كيف نواجه الحياة؟ كيف نواجه الموت؟ وأيهما أقسى علينا أن نعرف كيف نعيش، أو أن نعرف كيف نموت؟

وهل لنا إرادة فى الحياة أو الموت، ما هذا الإنسان الذى لا يستطيع أن يدرك من أين جاء وإلى أين يمضى؟ ومع ذلك فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذى ميزه الله على سائر الحيوانات بالعقل والإدراك!

والحياة، والموت، والبدء، والنهاية مشكلة أزلية نعانيها، ولكنها لا تتعرض لتفكيرنا إلا إذا مستنا فى أنفسنا أو أصدقائنا، ولعلها المشكلة الوحيدة التى يتساوى فيها أن نفكر، أو لا نفكر!

فى هذه السنوات الأخيرة، شيعت عشرات من الأصدقاء إلى المصير المحتوم، وأتلفت حولى فلا أجد من أصدقاء الطفولة

إلا بضعة أصدقاء، كم أتمنى أن أموت قبلهم، فلم يعد فى قلبى ولا فى عينى مكان لحزن جديد، أو دمعة جديدة!

عرفت فرج جبران عام ١٩٤٠ كنا زميلين فى آخر ساعة، وأخبار اليوم، والجمهورية كان فرج جبران يبتسم للحياة بكل قلبه، وما أظن أن الحياة ابتسمت له من قلبها يومًا، فقد كان يكد ويكدح فى وظيفته، وفى عمله الصحفى، وفى دراساته المتعددة وفى تأليف الكتب والقصص، وترجمة الآثار العالمية، وفى رحلاته الكثيرة إلى جميع بلدان العالم.

هذا الإنسان المتفائل المبتسم الذى كتب آلاف المقالات، وأصدر عشرات الكتب، كان يقاوم المرض، والإرهاق، حتى لا يقل إنتاجه، فيقل تبعًا لذلك مستوى معيشته هو وأسرته. وهى معيشة خالية من البذخ، فإن فرج جبران لم يكن يعرف البذخ إلا فى الدراسة والعمل.

يا صديق، يا زميلى، لا أعرف كيف أبكيك فقد أعجزنى الحزن حتى عن البكاء.

الحق... والحياة!

قال لى طبيبى إن نسبة السكر فى دمى قد ارتفعت بصورة تدعونى إلى الحيطة والحذر.. وأخذ يشرح تقرير طبيب التحليل، ويضع خطوطًا تحت الفقرات الهامة التى تضمنها التقرير، ثم أعطانى قائمة بالأدوية التى يجب أن أستعملها حتى أقاوم خطر ارتفاع نسبة السكر.. وبدا من نبرات صوته أنه لا يصف لى علاجًا ولكن يرثينى بكلمة تأبين.. وأحسست وهو يودعنى إلى باب غرفته أنه لا يودع صديقًا ولكن يشيع جنازة!

وكنت منذ دخل السكر حياتى، أفزع إذا ما ارتفعت نسبة السكر وأظل أوجه إلى طبيبى أسئلة تدل على خوف من الموت، وتشبثى بالحياة.

فى هذه المرة لم أفزع، ولم أسأل الطبيب عما إذا كان هناك خطر على حياتى؟

وأخذت منه قائمة الأدوية الجديدة، وأحسست وأنا أضعها فى جيبى أن رصيدى من الأدوية قد تضخم.. وهكذا أصبح لى رصيدان بلغا من الضخامة والجسامة أقصى الحدود.. رصيدى من الأدوية، ورصيدى من الديون!

وذهبت إلى البيت، وأخلدت إلى نفسى أفكر فيما ينتظرنى، أو أنتظره.. بعدما ساءت حالتى الصحية؟ وما الذى ننتظره أو ينتظرنا، إذا مرضنا إلا الموت..

وأعترف بأنه حدث أكثر من مرة أن مرضًا خطيرًا عرضنى لموت محقق، وكنت كلما نجوت بحياتى أفرح وأنتشى، فقد كان شعورى برهبة الموت يفتت قلبى، ويسحق أعصابى ويثير الرعب فى دمائى وعروقى.. كان الموت هو عدوى الوحيد الذى أخشى لقاءه! ولعل هذا هو إحساس الناس جميعًا ولا أدرى لماذا؟ فإنهم مثلى لا يعرفون ما هى الحياة؟ ولا يعرفون ما هو الموت؟ هل الموت منفصل عن الحياة؟ وكيف ينفصل منها وهو لا يكون إلا بها. فلا موت بغير حياة أو لغير حياة؟ وهل الموت متصل بالحياة؟ لماذا إذن نتهيبه ونجفل منه، فى حين نقبل على الحياة ونطمئن إليها؟ هل هو نهاية شاذة

للأحياء؟ كيف يكون ذلك وكل من سبقنا من الأحياء انتهوا بالموت؟ هل هو نهاية طبيعية لكل ما هو حى؟ إنه كذلك فعلا.. فكيف نحاول أن نفر من نهايتنا وإلى أين الفرار؟

ومع ذلك فما أكثر ما أحببت الحياة! وما أكثر ما كرهت الموت، دون أن أفهم لماذا أحب، أو لماذا أكره؟ كل ما أدركه الآن من أسباب حرصى على أن أحيا، هو أنه كان لى فى الحياة ما أريده وكان عندى للحياة ما أعطيه!

واليوم تغيرت نظرتى إلى الموت.. لم يعد الموت ذلك العدو الذى يخيفنى، بل لعله صار صديقًا.. ولهذا لم ترتعد فرائصى وأنا أرى خطر مرضى مدعمًا بالبيانات والأرقام والتحاليل! ولست فى ذلك متشائمًا أو يائسًا فموت الأحياء تجديد للحياة.. إنه يخلى مقاعد العجزة والمرضى والضعفاء لأحياء جدد قادرين، أصحاء، أقوياء،.. ولو لم يكن الموت لتجمدت الدنيا على حالة واحدة، أو ضاقت بمن فيها، بحيث لا يستطيع أحد أن يتحرك من مكانه! إننا مع الموت نشكو من تزايد عدد البشرية.. وضيق المجال الحيوى وقد دفعتنا الحاجة التى هى أم الاختراع إلى أن نبحث لسكان الكوكب

الأرضى عن كواكب أخرى يسكنونها ويستغلونها، فغزونا الفضاء، وطرقنا باب القمر، وسيطرق عما قريب باب المريخ! فكيف يكون حال البشرية لو انعدم الموت، أو توقف عن النشاط.

إن الموت فى المفهوم الدينى هو الحق، والدنيا هى الباطل.. وإذا كان هناك عذر لغير المؤمنين فى أن يجفلوا من الحق، أى الموت، فما هو عذر المؤمنين!

لقد أحسست اليوم، أن الموت حق تمنحه الحياة للأحياء!

إن الموت كما قلت يحفظ الحياة، وينميها، ويطورها، وذلك بتجديد الأحياء فهو يميت ناسًا، ويحيى غيرهم، ولو توقفت حركة الموت والحياة بين الناس، فإن الإنسانية تصاب بالجمود، وليست رسالة الموت التى يؤديها للحى بأقل شأنًا من رسالته التى يؤديها للحياة فهو الباب الوحيد المفتوح أمامنا عندما يغلق المرض، أو الشيخوخة، أو سوء الحظ.. جميع الأبواب فى وجوهنا!

وتناولت الأدوية التى وصفها لى الطبيب. الحبوب والسوائل والحقن وسأظل أتناولها لا خوفًا من الموت، ولكن

خوفًا من الانهيار تحت وطأة المرض. فلم يعد يعنيني أن أحيا، ولم يعد يهمني أن أموت، وإنما الذي يعنيني ويهمني هو أن أحيا وأنا في صحوة الفكر والمشاعر، والجسد.. وأن أموت ورأسي مليء بالأفكار والظنون وقلبي نابض بالإيمان والحب وجسدي ينتفض ويتحرك، ويمشي على قدميه!!

الهاربون من القضاء.. إلى القدر!

هل تستطيع أن تهرب من الموت؟ هل تستطيع أن تطيل عمرك يومًا واحدًا؟

المؤمنون بالله يقولون: لا.. والعلماء يقولون نعم.. ولقد بذلوا جهودًا مذهلة، ليعيدوا الحياة إلى الموتى. فما أكثر البحوث والتجارب التى انتهت إلى خلق النبض فى قلب لم يعد ينبض، أو استخدام كلية صناعية بدلا من الكلية الطبيعية التى فقدت وظيفتها، أو استئصال السرطان من الدم.. وقد اتجهوا إلى اختراع آلات تنتج قطع غيار من البلاستيك للقلب، والكبد، والمخ، والشرايين، وتوقعوا أن يجىء الوقت الذى يصبح فيه الإنسان مثل «الأتومبيل».. إذا حدثت له إصابة لا يلجأ إلى طبيب ولكن إلى ميكانيكى.. ولا يدخل مستشفى ولكن يدخل المصنع المعد لإصلاح وتغيير أعضاء الجسد!

وهكذا، يمكن إنشاء محطات للناس، مثل محطات

البنزين. لو أحس أحد أن أنفاسه تلفظ آخر رمق اتجه إلى المحطة وأخذ حاجته من الأنفاس الصناعية بواسطة الخرطوم!

ولكن لماذا اتجه العلماء هذا الاتجاه؟..

لماذا يحرصون على إطالة عمر الإنسان؟ هل هناك أزمة موت يجب أن نجد لها حلا؟ إن الأزمة التى يعانيها العالم هى أيضًا تكاثف السكان، أى زيادة عدد الأحياء، وليست زيادة عدد الموتى!

والحرص على بقاء البشرية لا يكون بإطالة أعمار الناس، ولكن يكون بإطالة عمر الإنسانية، وتجديدها، وتطويرها، ودفعها إلى حياة أفضل. ولو ظل الأحياء كما هم، لا يموتون فلن يجدوا المكان الذى يسمح لهم بأن يعيشوا وقوفًا على أقدامهم. للزيادة المطردة فى عدد المواليد كل يوم!

ولو امتنعنا عن استقبال الأحياء الجدد، وأغلقنا باب التناسل، واكتفينا بأن تظل الحياة لنا وحدنا، فأى حياة هذه التى نحرص عليها. إنها لن تكون إلا جثة..

إن من يتجهون إلى إطالة عمر الإنسان لهم حوافز علمية، ولا شك. يريدون أن يكشفوا مجهولا، أو يحققوا

معجزة، ولكن لهم حوافز أخرى غريزية، وهى التشبث بالحياة.

إن حبهم لأنفسهم هو الذى دفعهم إلى أن يبحثوا ويجربوا عن طريقة تتيح لهم ألا يموتوا.. وإنهم برغم علمهم، مثل الفنانين، يعيشون فى الرؤى والأحلام. ولكن بطريقة علمية!

إن الموت هو الحق الوحيد الذى نكرهه، فإذا دهمنا مرض عضال، أو انتابتنا كارثة خانقة، أحببنا هذا الحق، وطالبنا به!

كان لى صديق حبيب أصابته أمراض وآلام، ولم يترك الأطباء العالميون وسيلة لإنقاذه. وعاد إلينا بعد ما تردد على جميع المصحّات فى أوربا، وأمريكا وروسيا، ورأيناه وهو يعانى الضنى بصبر، وكبرياء.

وكان دمعه الذى حبسه فى عينيه، ينهمر من عيوننا.. وأنّاته التى أخفاها فى ضلوعه تصرخ من أفواهنا.. وجاءه طبيبه، وأعطاه حقنة فى الوريد وأخرى فى العضل، وقرب منه أسطوانة الأوكسيجين ليتنفس بها وفتح عينيه وقال للطبيب:

- إن الله يدعونى فلماذا تقفون عقبة فى طريق إليه!

ومنذ أيام، قرأت فى الصحف أن أكبر طبيب أمريكى متخصص فى مرض السرطان جمع الأطباء والعلماء، وشرح لهم النظريات التى وصل إليها العلم لإطالة أعمار المرضى بهذا الداء، وأثبت بالأرقام والإحصائيات أنه قد استطاع أن ينقذ حياة مريض أو أكثر، ويرجئ وفاته سنة أو سنتين، ولكنه تبين بالتجربة الطويلة، أنه لم يؤد خدمة لمن أطال أعمارهم.. فقد ماتوا بعد ذلك، وكل ما جنوه أن عمرهم فى العذاب طال!

قال: عبثًا نحاول منع المصابين بالداء العضال من أن يلبوا دعوة الله إليهم.. فلنفسح لهم الطريق، حتى لا نزيد من عذابهم، ونتحدى إرادة الله!

ثم أعلن أن الرحمة بالمريض الميئوس من شفائه تحتم علينا أن نمتنع عن علاجه!

وأحسست فى كلام الطبيب الأمريكى أن إنسانيته المؤمنة بالقوة الإلهية انتصرت على علمه الذى جعله يحاول كل هذه السنين إنقاذ الناس من النهاية المحتومة.. فكان يهرب بهم من قضاء الله، إلى قدر الله!

شعرت فى كلامه بنبرة الندم على أنه حرم ناسًا من حقهم الطبيعى وهو أن يموتوا دون أن يتعذبوا..

إن الإيمان بالله، وقدرته، هى النبض الطبيعى للحياة.

ومع ذلك فما أكثر ما يعترينا الغرور فنظن أن فى استطاعتنا أن نخلق للحياة نبضًا صناعيًّا، ثم ننتهى بعلمنا وتأملاتنا، وظنوننا، وفلسفتنا إلى منبع البدء والنهاية.. الله..

ومنذ بدأ العلم يخترق الفضاء، ويبحث عن الكواكب الأخرى، اجتاحت الناس موجة من الخوف على إيمانهم.. وتساءلوا: وماذا يبقى لله بعد أن يخترق الإنسان الفضاء، ويصل إلى القمر، والمريخ؟ سيبقى الله!

كان أكثر العلماء فى عصرنا هذا، عصر الذرة لا يؤمنون بالله لأنهم يؤمنون بالعلم.. وأخيرًا أعلن أكبر علماء الذرة فى روسيا أنه قد اتضح من التجارب التى جرت فى اختراق الفضاء أن هناك قوة خفية تحرك الكون كما تشاء!

وأنا لا يعنينى أن يطول عمرى أو يقصر. وإنما يعنينى أن أمارس حياتى ولو كانت أيامًا معدودات. بعقلى وقلبى.. فما

جـدوى أن أعيش أرذل العمـر، وعقلى جـامد، وقلـبي لا ينفعل!

إن يومًا واحدًا أفكر فيه، وأحب، وأعمـل.. خـير مـن مائة عام أعيشها بلا فكر، بلا حب، بلا عمل!

أيتها الذكريات... ماذا تريدين منى؟

عشت اليوم فى جو العيد، كل ما حولى فى البيت، والمكتب، والشارع، يستعد لاستقبال عيد الأضحى غدًا.

المحررون والموظفون والعمال يتجمعون فى مكتب الصراف ليتسلموا المكافآت وجزءاً من المرتبات، بينهم من تعلو فمه الابتسامة، وبينهم من لا يبتسم، ربما لأنه يدخر ابتسامته ليوم العيد! ربما لأنه لا يعرف كيف يواجه العيد بهذا القدر الذى تسلمه من المكافأة والمرتب!

سكان البيت حبسوا الخراف فى المطابخ وغرف الغسيل، والردهات، وربطوا رقبة كل خروف بحبل يتيح له أن يتحرك دون أن يمشى، ويتيح له أيضًا أن يعبر عن ألمه بهذا الصوت (ماء.. ماء) وإذا صاح خروف فى أية شقة بهذه الصيحة: (ماء) صاحت معه بقية الخرفان، فى كل الشقق، وتحولت الصيحات.. إلى احتجاج جماعى توجهه الحملان الوديعة إلى من أسروها، وأعدوها، لكى تكون ضحية العيد!

وقد أخرج السكان التراب من شققهم بالمنافض والمكانس وخراطيم المياه، وألقوا بالأتربة فوق عتبات السلالم الخلفية، وأخذ البوابون ينقلون هذه الأتربة إلى صناديق القمامة، تمهيدًا لتسليمها إلى عمال النظافة..

وفى الشارع حركة غير عادية، صبية الكوائين، يروحون ويجيئون بسرعة ونشاط، عربات التاكسى والعربات الخاصة، تقف عند أبواب البيوت والعمارات وتنزل منها لفافات تحمل أسماء أشهر محال الحلوى، والأقمشة، والخياطين. والعجلات التى تطوف البيوت باللبن والخبز كل يوم، طافت اليوم أكثر من مرة لتزود السكان بحاجاتهم فى إجازة العيد!

ولقد اعتدت هذا الجو فى الأعياد الماضية، وكنت أطيقه. ولكن فى هذه السنة ضقت به. وأحسست رغبة شديدة فى الهرب من مواجهة العيد هنا فى بيتى... ولكن إلى أين أذهب؟ إلى الإسكندرية ففيها البحر الواسع الكبير الذى تستطيع مشاعرى الجريحة أن تجد فيه ما يضمد جراحها!

ولكن الدم لا يسيل من مشاعرى وحدها، إنه يسيل من ذكرياتى أيضًا.. ولا أعرف إلى متى تبقى هذه الذكريات،

ولا أعرف ماذا تريده منى؟

ما أكثر ما عرفته ونسيته. إلا ذكرياتى، فأنا لا أستطيع أن أنساها، وهى لا تريد أن تنسانى.. ويا لها من ذكريات يختلط فيها الرضا والغضب، والذكاء والغباوة، والاطمئنان والقلق، والاستقرار والضياع.

بعض الذين أذكرهم تركوا الحياة، ولكنهم لم يخرجوا من حياتى، وبعض الذين أذكرهم دخلوا حياتى، وخرجوا منها وهم أحياء، ومازلت أبحث عنهم بخيالى، بأوهامى، بنبض قلبى، بخلجات نفسى.. أراهم وهم يهربون من عاطفتى فى طيارة أو صاروخ، فألهث، وراءهم بوفائى وحبى! ويا له من إنسان ساذج هذا الذى يحاول أن يلحق الطيارة أو الصاروخ بالوفاء والحب! ليته يعلم أن الوفاء ساق مشلولة، والحب جناح كسير!

صخب وهدوء

وبغتة وفى وقت واحد، أدرت الراديو والتليفزيون، ومسجل الأشرطة والفونوجراف. وتحدثت فى التليفون.. أريد

أن أثير ضجة، وصخبًا، وزعيقًا لعلنى أنسى هواجسى وتأملاتى، أو أفقد ذاكرتى!

ولكنى لم أفد من ذلك إلا الشعور بوجع رأسى، وارتديت ملابسى واتجهت إلى المقابر، كما اعتدت فى كل عيد. وهناك وجدت الهدوء المهيب الرهيب ووقفت عند قبر لا أعرفه، وتمثلت فيه كل أهلى وأحبابى الذين ذهبوا إلى غير رجعة، رأيتهم بملابسهم، بسحناتهم بملامحهم بمزاياهم النفسية والعقلية. كدت أسمع أصواتهم من شدة شعورى بهم.

وبدأت أتحدث إليهم.. وفجأة أدركت أن فمى لا يتكلم. وأن عينى هى التى تتكلم.. فلم تنطلق منى كلمة، ولكن انطلقت أنات ودموع!

فيم أنينى وبكائى؟ هل يرد الأنين غائبًا ليس لغيبته إياب؟ هل يعيد البكاء يومًا من سنة، أو دقيقة من ساعة؟

أم ترانى لا أئن شوقًا إليهم، ولا تدمع عيناى حزنًا عليهم. وإنما أنا أتأوه من ألمى، وأبكى على نفسى؟

وما الذى يؤلمنى؟ إن أقسى ما أعانيه هو المرض، وأين الإنسان الذي لا يعانى علة؟ وعلام نخشى المرض مادمنا

نستطيع مقاومته بالدواء؟ هل نخاف أن ينتهى بنا إلى الموت؟ وهل المرضى وحدهم هم الذين يموتون؟

ما الذى يؤلمنى، وأنا أحيا كما أريد. أعمل، وأقرأ، وأكتب، وأفكر، وأعيش عصرى بكل ما فيه من حضارة، وعلم، وفن، وجمال؟

إن الحياة فى نطاقها المادى المحسوس لا تؤلم الأحياء. وإنما تؤلمنا حياتنا عندما يجتاحها تيار الانفعال بالحب، والخير والوفاء، والذكريات؟ إن انفعالاتى هى سر ألمى!

وإذا كانت ذكرياتنا عن أحبابنا الموتى سوطًا يلسع ظهورنا، فإن ذكرياتنا عن أحبابنا من الأحياء خنجر يشق قلوبنا، وحبل يشنق رقابنا.

إننى أكتب هذه الكلمات وقد نفضت قدمى من صحراء الإمام، وسرت فى الطريق الصحراوى إلى الإسكندرية.. إن الصحراء تغرينى بالتأمل، سواء كانت طريقًا أو مقبرة.. وبعد ساعتين سأكون فى الإسكندرية. حيث البحر العميق العملاق.. وكم ألهمنى هذا البحر أفكارًا، وأشعارًا،

وتعبيرات صادقة.. وكم تخلى عنى فلم يلهمنى شيئاً إلا الوحشة والكآبة!

ليتنى أستطيع أن أكسب صداقته لحظة واحدة.. لحظة أغرق فيها ذكرياتى عمن يعيشون معى وليسوا معى! الموتى الذين سأعود إليهم يومًا، والأحياء الذين لن أعود إليهم أبدًا.

وهؤلاء الأطباء.. هل ينطبق القانون عليهم؟

أعتقد أنني عشت حياتى بطريقة أرهقتنى حتى أصبحت أحس أنى لا أسير مع عمرى ولكنى أحمله كصخرة فوق رأسى!

ولست آسفًا على ذلك، فإن هذه الطريقة المرهقة علمتنى الإيمان بالإنسانية، واستطعت أن أنفعل بكل ما يشعر به الناس من يأس وقلق وأمل واستقرار. وأصبح الإنسان مشكلتى التى أعانيها ويتصبب ذهنى عرقًا وأنا أفكر فيها. وإذا عجزت لحظة عن مشاركة الإنسان فى هدوئه أو غضبه، فإنى لا أعجز أبدًا عن أن أغنى له، أو أبكى عليه!

وهذه العاطفة الإنسانية كانت فينا كالغرائز، ولكن ما أكثر الذين لا يحاولون تنميتها ويكتفون من الشعور الإنسانى كله بأن يشعروا بأنفسهم ليس إلا.... وهذه أنانية بشعة، والأنانية هى الأخرى غريزة، ولكنها من الغرائز التى يتحتم على البشرية فى مراحل تطورها وسموها، أن تهذبها، أو تقضى

عليها. مثل بقية الغرائز الشريرة التى تعيش فى صراع دائم مع غرائز الخير.

وعندما كانت الغلبة للشر كان الإنسان أشبه بحيوان مفترس، يكره ولا يحب، ينتقم ولا يعفو. يستخدم مع أقرب الناس إليه أساليب الغدر. والسطو، لا يؤمن بشىء إلا ذاته.

يريد أن يملك كل شىء بالاغتصاب والجور ولا يريد لسواه إلا العجز والضعف والجوع. كانت المبادئ والقيم مجهولة. أو مهدرة. كان الإنسان يعيش وحده ولا يبغى للآخرين أن يعيشوا معه.

ولما ارتقت الإنسانية، عاطفيًّا وذهنيًّا كشفت حقيقتها. ورأت أن الإنسان لا يعيش إلا بغيره، ولغيره، وأن الحياة تتطلب من الأحياء أن يواجهوها بالتعاطف، والشعور بمسئولية الإنسان عن الناس جميعًا، وأن يحل الخير، والحب، محل الشر والكراهية.

وبدأ المفكرون والحكماء منذ آلاف السنين يتجهون بالإنسانية إلى هذه المعانى، وكانت الإنسانية تهتدى فترة، وتضل الاتجاه فترات وجاءت الأديان السماوية، فركزت

رسالاتها المقدسة على رفع الإنسان من هاوية الشر. إلى قمة الخير.

وعانى العالم أزمات فكرية زلزلت العقائد، وارتفعت أصوات ملحدة وأخرى مؤمنة، ولكن هذه الأصوات برغم اضطرابها بين الشك واليقين كانت تنادى بأن الإنسان للإنسان.

وبين هذه التيارات ظهرت مذاهب إنسانية، تدعو إلى المساواة، وتكافؤ الفرص، وحرية الرأى، والعقيدة، والتكافل الاجتماعى، ولكل مذهب أسلوبه، وطريقته، ومنهجه، غير أن هدفها هو الارتقاء بالإنسانية وبالإنسان.

وعندما سارت بلادنا فى طريق الاشتراكية، كان هذا نقطة البداية لممارستنا لإنسانيتنا، وحياتنا. وقد شنت علينا الرجعية حربًا شعواء، وتخفت وراء الدين، وخصصت فى إذاعاتها برامج يتحدث فيها رجال لهم صفات دينية تقليدية. وأخذ هؤلاء الرجال يؤكدون فى حماسة مفتعلة، وورع زائف أن اشتراكيتنا تتعارض مع العقائد والأديان!

ولم تلق هذه الدعايات استجابة من أحد، فالقوانين

وقد رأيت بين عشرات المحزونين سيدة ليس لها وقفة ولا خطوة [ص ٧٠]

الاشتراكية تنطوى على العدالة، والإنسانية، والمساواة. وديننا عدل، وإنسانية، ومساواة.

إننا باشتراكيتنا لم نسبق ديننا، بل رجعنا إليه، فديننا ينص على أن الناس كأسنان المشط، وأنهم كالبنيان المرصوص، وأنه لافضل لعربى على أعجمى إلا بتقوى الله. والتقوى هى العمل الصالح وهو يخاطب الفرد فيقول له: أحب لأخيك ما تحب لنفسك.

وهذه المعانى هى جوهر اشتراكيتنا، وقد أخرجناها إلى حيز التطبيق بقواعد وقوانين.

* * *

إن هذه السطور لا تتلاءم مع عنوان الموضوع، أخشى أن يظن القارئ أنها مقدمة لما أريد أن أقوله. فأنا لا أستسيغ المقدمات المسهبة وإنما هى خواطر ألحت على ذهنى، منذ شهر أو أكثر، عندما قرأت فى الصحف نبأ عن مشروع قانون يقضى بمعاقبة كل من يقصر فى المبادرة بإسعاف مريض، فإذا سرت فى الشارع ووجدت شخصًا يشكو من ألم، أو ملق على الأرض إعياء، فإنك لا تستطيع أن تتركه من غير أن تقف.

إلى جانبه وتعمل على إنقاذه، وإلا تعرضت للعقوبة القانونية. فأنت مسئول عن كل فرد، وكل فرد مسئول عنك، وهذا التشريع ينم عن إنسانية رفيعة، ولم يكن موضع تفكير المشرعين قبل عهد اشتراكيتنا الإنسانية، وهو نابع من روح الدين الذى ينادى بأن «كلكم راع، وكل راع مسئول عن رعيته».

والأطباء؟

ولست أعرف تمامًا مدى تطبيق هذا القانون، هل سيختصر على من يشهد مريضًا ولا يبذل جهدًا فى إسعافه، أو أن نطاقه سيتسع حتى يشمل بعض الأطباء الذين يلجأ إليهم مريض فى بيوتهم بواسطة التليفون فيجد السماعة بعيدة عن التليفون، ويظل رقم التليفون مشغولا إلى أن يموت المريض!

وهناك أطباء يخلعون «فيشة» التليفون، ويرن تليفونهم، فى أذن المريض دون أن يرد عليه أحد.

هل يطبق القانون على هؤلاء الأطباء؟ إن العدالة تقتضى ذلك. فكم من مريض علق أمله على الاتصال بطبيبه فى

التليفون ولم يستطع لأن الطبيب خلع « الفيشة » أو رفع السماعة !

إننى أومن بحق الطبيب فى أن يستريح من عناء عمله، ولكن طبيعة مهنته تقتضى منه أن يهب راحته وروحه معًا لمرضاه.

وكانت تقاليد أطبائنا فى الماضى إلى عهد قريب شيئًا آخر غير ما نسمع به هذه الأيام عن بعض الأطباء. كان الطبيب ينام والتليفون إلى جواره، فإذا رن الجرس هب من نومه، ورد على المتكلم، واستمع إلى شكواه فإذا وجد حالته خطرة، ارتدى ملابسه وزاره فى بيته، وإذا وجد أنها حالة بسيطة نصحه بتناول بعض الأدوية.

وقد روى لى الأستاذ الدكتور عبد الله الكاتب، أن عميد الجراحين المغفور له على إبراهيم امتنع قبل وفاته بسنتين عن إجراء عمليات جراحية ومع ذلك حرص على أن يبقى التليفون بالقرب من سريره، حتى إذا طلبه مريض، بادر واتصل بأحد تلامذته مثل الدكتور مورو أو الدكتور الكاتب وأيقظه من نومه وأعطاه عنوان المريض وكلفه أن يتوجه إليه ويفحص حالته،

ويتولى الإشراف على علاجه!

إننى بهذه الكلمات لا أحاول أن أتهجم على فريق من الأطباء، ولكنى أحاول فقط أن أتهجم على تليفوناتهم!

لعنة الله على التليفونات..

الحياة لقاء.. والموت فراق!

الساعة الآن الرابعة صباحًا. . منذ عشرين دقيقة غادرت المستشفى الكبير، وقد تركت فيه آمالا تتحطم، وصلوات تشق طريقها إلى السماء فلا تكاد تصل إليها حتى تحترق، ودموعًا تنبع من قلوب مزقها الحزن والألم، وقد تركت هناك آمالى وصلواتى ودموعى، وقلبى الممزق. . تركتها تشد أزر الزوجة الشابة، والأم العجوز، والإخوة والأخوات. . والطفلين الصغيرين، والشباب الراقد على سرير يعانى نزيف المخ. . والأطباء حيارى بين علمهم وتجاربهم، وبين ما يرونه من تصرفات القدر! الأبحاث تؤكد أن لا أمل. . ويجىء القدر فيمحو هذا التأكيد تارة، ويثبته تارة، وأعصابنا مشدودة بين المحو والإثبات. . نظراتنا زائغة، قلوبنا مرتجفة، وفى خواطرنا نزيف لا ينقطع من الأمل الخادع، واليأس القاتل. . ومن نحن؟ إن فينا الأهل، والزملاء والأطباء والأصدقاء ومن ليسوا بأصدقاء. فينا من عرف المريض فأحبه، وفينا من عرفه

واختلف معه، ولكنه لم يكرهه قط، فإن إسماعيل الحبروك من الأشخاص القلائل الذين يتحدونك أن تكرههم، مهما يشتد خلافك معهم، صداقته بيضاء، وخصومته بيضاء، وطيبة قلبه تجعل من الغفران ستارًا بينه وبين كل من يتصور أنهم أساءوا إليه، أو يتصورون أنه أساء إليهم..

أهكذا، وفى أقل من ومضة البرق، تنتهى حياتنا، ويتسلل الموت إلينا، فلا يرده عنا ما فى رءوسنا من أفكار، وما فى صدورنا من عواطف، لا ترده الأذرع الملتفة حولنا، أذرع الأمهات والزوجات والآباء والإخوة والأحباب وفلذات الأكباد.. لا يرده أن كثيرًا فى الحياة وكثيرًا من الأحياء فى حاجة إلى أن نعيش لهم!

ولكن لماذا نفزع من الموت وهو حقيقة لا تقبل الجدل؟.. لماذا يعصر قلوبنا الحزن على من يموتون؟.. هل حزننا وفزعنا هرب من الحقيقة؟.. كلا.. فالموت نهاية طبيعية لكل حى، إنه وسيلة وغاية.. وسيلة لتجديد الحياة بأحياء آخرين، وغاية كل عمر ولو تناهى إلى مئات السنين.

إن فزعنا ليس من الموت، ولكن من الفراق.. فراق من

نحبهم من الأعزاء علينا.. فراق من بنوا حياتنا بالعلم، والمبادئ، والقيم، وجعلوها تنبض بالكلمة والنغمة، وجملوها بلوحة أو تمثال.

إننى لا أعرف ماذا كتبته.. فأنا لا أكتب الآن، ولكنى أسجل أنفاسى اللاهثة فى المستشفى.. أسجل خواطرى فى المستشفى.. أسجل تأثرى بالأساليب التى عبر فيها الناس عن اهتمامهم بالمريض، ولهفتهم عليه. فيهم من كان يجهش بالبكاء كطفل، ومن كان يمضغ حزنه، ومن كان الحزن يمضغه.. ومن كان يرسل نظرات شريدة فى غير اتجاه، وفى كل اتجاه.. ومن كان يردد اسم الله القادر على كل شىء ويسأله فى ضراعة أن يستعمل قدرته سبحانه.

وكان الألم يرتسم على قسمات الوجوه.. وفى السوقفات المترنحة، وفى الخطوات الضائعة بين غرفة المريض وغرفة الاستراحة..

وقد رأيت بين عشرات المحزونين، سيدة ليس لها وقفة، ولا خطوة، ولا ملامح.. كانت عيناها، وأنفها، وفمها، وكل قسمات وجهها دموعًا وتشنجات.. إنها شريكة حياته.. إنها

أم أبنائه.. إنها حبيبة العمر الذى يحاول الموت أن ينزفه!

ورأيت كل الأطباء وقد تجاوزوا جميعًا مرحلة البشر.. بينهم من تخلوا عن آدميتهم وصاروا ملائكة، وبينهم من تركوا آدميتهم وصاروا شياطين! ما هذا الذى أسمعه، بل ما هذا الذى أشهده؟.. كيف طاوع هذا الطبيب الكبير ضميره عندما رفع سماعة التليفون فى داره، حتى لا تقلقه أنباء المريض الذى يكافح الموت وحده.. يكافحه وهو فى غيبوبة؟!

كيف طاوع هذا الطبيب الكبير الآخر ضميره وهو ينكر نفسه ويرد على سائليه بصوت غير صوته قائلا: الدكتور موش موجود؟!

كيف طاوع هذا الطبيب الكبير الثالث ضميره وهو يحتج بأعلى صوته على إزعاجه واستدعائه إلى المستشفى فى حالة ميئوس منها؟!

يا أطباءنا الكبار، بل يا بعض أطبائنا الكبار.. إننا لا نطلب منكم أن تكونوا ملائكة، ولكن نطلب منكم - فقط أن تكونوا من البشر!

إلى أين... أيها الإنسان؟!

بدايتنا أشبه بنهايتنا..

هما طرفان لشيء واحد هو الحياة..

ما لهذا الشهر - ديسمبر - يزحم رأسي بالخواطر والتأملات أكثر من أي شهر آخر من شهور السنة؟ ربما لأنه الشهر الذي بدأ فيه عمري، فأنا من مواليد ديسمبر.. ربما لأنه الشهر الذي تنتهي فيه أعمار الأعوام!

وبداية العمر ونهايته كلتاهما تثير الشوق إلى المعرفة.. فنحن نولد وفي نفوسنا شوق إلى أن نعرف الهضبة التي نحاول الصعود إليها.. وعندما نصل إلى الهضبة نتحرق شوقًا إلى أن نعرف لماذا وصلنا إلى الهضبة، وماذا بعد الهضبة؟

بدايتنا أشبه بنهايتنا.. فهما طرفان لشيء واحد هو الحياة..

وفي ذهني خط بياني عن دور الإنسان في ممارسة حياته..

وفى هذا الخط البيانى انخفاضات وارتفاعات تثير الحيرة!

فالإنسان فى رأى العلم ليس أول المخلوقات، ولكنه تطور لها.. وهو فى رأى الدين أعظم المخلوقات.. وقد تجلت عظمته فى سيطرته على الطبيعة وتسخير إمكانياتها فى خدمة راحته الجسدية.. وتهيئة حضارة فكرية تتمثل فى العلوم والفنون..

وقد حقق الإنسان منذ مستهل القرن العشرين حتى الآن من الخوارق العلمية، ما غير وجه التاريخ.

لقد وصل الإنسان إلى كوكب القمر أو كاد.. وهو اليوم فى طريقه إلى كواكب أخرى كالزهرة والمريخ.. ولقد امتلك الجو.. أصبح الجو لنا، نتحكم فى طبقاته بالطائرات، والصواريخ، ونتحكم فى تقلباته بين الحر والبرد والصحو والضباب.. ولكننا مع قدرتنا على إذلال طبيعة الحياة مازلنا خاضعين لذل الجهل بجوهر الحياة!! فلم نعرف بكل ما فينا من قوة عقلية، وتقدم علمى، ما هذه الحياة، وهل قيمتها فى ذاتها، أو أن قيمتها فى أهدافها؟ وما هى هذه الأهداف؟

إن كوكبنا الأرضى يدور.. ولكن لماذا دار؟ وإلى متى يدور؟

إن العلماء الذين نجحوا فى الوصول إلى سر القمر، أخفقوا فى أن يصلوا إلى سر عقولهم وأرواحهم!

والناس البسطاء تذهلهم المخترعات، وتكاد تزلزل منهم العقائد.. سألنى واحد منهم: لو أن الذى اخترع الراديو، أو الصاروخ العابر القارات ادعى النبوة.. ألم يكن الناس يصدقونه، ويدخلون دينه أفواجًا؟.. أليست هذه المخترعات العلمية أعجب من المعجزات؟

وقلت للإنسان البسيط: إن الفرق بين العلم والمعجزة، هو أن ما يأتى به العلم مرة يمكن أن يتكرر مرات، بصورة أروع وأحسن.. أما المعجزة فهى لا تتكرر، ولكن تحدث مرة واحدة..

ومعجزات الأنبياء خارقة بذاتها، وخارقة بذات النبى نفسه، فهو لا يجيء بالمعجزة ويدخل مصنع المعجزات ليبتكر معجزة أقوى، وإنما هو يندفع مع المعجزة يدافع عنها، ويناضل، ويتعذب، ويحمل عذاب الأنصار والأعداء على السواء.. إنه لا يعمل لنفسه، أو لقومه، ولكن يعمل للبشرية.. للجنس البشرى.

والنبى هو الذى هدى العقل إلى أن يصنع كل هذه العجائب العلمية ولا أحد يدرى إلى أين سينتهى الإنسان فى طريق العلم والمعرفة..

هذا الإنسان الذى كان واحدًا من المخلوقات المائية، فتطور وصار أنق المخلوقات.. هذا الإنسان أصبح يملك أسرار الطبيعة ويتحكم فيها، لكنه لن يستطيع أن يملك سر روحه.. أو أن يتحكم فى مصيره!

إلى أين نمضى

« إلى أين نمضى - أيها الدهر - بعدما نصير هباء.. لا ضجيج، ولا صمت ؟ ! إلى أين يمضى شيبنا وشبابنا ؟ إلى أين يمضى الومض والنبض، والصوت ؟ وفى أى قبر منك خبأت من مضوا وأبعدت مثواهم.. فراحوا ولم يأتوا ! ؟ »

ما هذه الدنيا ؟ ولمن هى ؟

إنها ليست للموتى... فقد ماتوا. وليست للأحياء.. فإنهم يموتون !

لماذا إذن نتشبث بها، ونتصارع فيها، فيم فرحتنا بالأمل، والراحة والطمأنينة، فيم فزعنا من اليأس، والتعب، والقلق ؟ ما خطر المرض ما قيمة الصحة.. ما العمر كله طال أو قصر ؟

البداية واحدة.. والنهاية كالبداية مثلما جئنا نذهب.. ولا ندرى لماذا جئنا ولا لماذا نذهب.. !

ألهبت هذه الخواطر ذهني ومشاعرى كما لو كانت نيرانًا أو سياطًا.. وكلما حاولت أن أتفاداها تعقبتنى بعنف وإلحاح فأخضع لها... وهل نستطيع شيئًا إلا الخضوع؟ أى سلاح معنا نقاوم به هذه الحقائق؟ ليس معنا إلا الوهم والخداع.

نموت كل يوم فى أنفسنا وفى غيرنا... ونحن مع ذلك نعمل، ونكد، ونكدح كأننا نعيش أبدًا.. نحارب اليأس وهو حقيقة، ونتعلق بالأمل وهو خيال..!

إذا قتل أحدنا الآخر فالقاتل سفاح والقتيل شهيد... وإذا قتلنا عزرائيل فهو قضاء وقدر ونحن موتى...

نقاوم المرض لا لنعيش، ولكن لنموت أصحاء.

من أين وإلى أين..؟

سؤال دارت به رءوس الفلاسفة والمفكرين من قديم الأزل.. وقد ماتوا ولم يجدوا جوابًا عن السؤال، إلا فى تكرار السؤال...!

الذين لم يسألوا أشقياء، والذين يسألون أشقياء..

من نحن؟ ماذا يراد بنا...؟ وما هو منطق الحياة مع الأحياء؟

هل هى للأذكياء.. ؟!

كم من ذكى قضى وهو شعلة تتوهج ؟!

هل هى للأغبياء.. ؟

كم من غبى مات ولا نعلم لماذا عاش ولا لماذا مات.. ؟

هل هى للأصحاء.. ؟

كم من صحيح ذهب وهو فى ريعان القوة والشباب... !

هل هى للمرضى... ؟

كم من مريض دخل الحياة مريضًا وخرج منها مريضًا .. وربما عاش أكثر مما عاش الأصحاء.. ؟

هل الحياة حق .. ؟ وكيف نمارس هذا الحق.. ؟

هل الحياة باطل ومحال ؟ وما جدوانا من الباطل والمحال.. ؟

ما هو القانون الذى ينظم علاقتنا بانتهاء الأجل... ؟

كيف نعلل بقاءنا أمدًا طويلا أو أمدًا قصيرًا.. ؟

ما أكثر الذين فقدناهم فى عمر الورد.. ونضارة الورد.. وما أكثر الذين عاشوا ذابلين... ولم يموتوا.. !

هل الأعمار صفائح بنزين.. تعطى الأقدار كلا منا صفيحة، بعضنا يستنفدها فى ٤٠ كيلو وبعضنا يستنفدها فى ٤٠٠ كيلو؟

هل الأعمار جواز مرور فى طريق الحياة؟.. بعضنا يحمل جوازا بالمرور حتى الكيلو عشرة، وبعضنا يحمل جوازًا بالمرور حتى الكيلو ٩٠، ولا نهاية لهذا الطريق!

وهؤلاء الذين ماتوا.. أين ذهبوا..؟ أين ذهبت أجسادهم وأرواحهم..؟ ولماذا التقينا بهم وفارقونا؟ لماذا أحببناهم؟ لماذا كرهناهم؟ هل يعودون فينا؟ وهل نعود فى غيرنا..؟

أهذه أوهام محزون؟

أم هذا هو المنطق والحقيقة..؟

أهذه دموع أم هذه أفكار؟

لا أدرى... كل ما أدريه أنى استقبلت بدموعى هذه، أو أفكارى هذه.. صديق وهو عائد من الاسكندرية.

استقبلت صداقة عشرين عامًا. كانت كلها صفاء، ووفاء ورجولة.

استقبلت جثمانًا.. جثمان الصديق وجثمان الصداقة..!

وسأل الأصدقاء الباكون: كيف مات حسن الأعور..؟

كلهم يريد أن يعرف السبب! هل كان مريضًا؟ هل أصيب في حادث..؟

لماذا تسألون..؟

لقد مات حسن الأعور كما مات من سبقونا، وكما سنموت جميعًا.. مات لأنه كان حيًّا!

إن الأقدار لاتحكم علينا بالموت إلا إنها حكمت علينا بالحياة..!

عش بعدنا..

أقف اليوم. مشدود الأعصاب. أحاول أن أبكى فأرتعش، أريد أن أشهق فتختنق أنفاسي، أتمنى أن أقول كلمة فإذا الحروف خرساء!

لقد هدنى النبأ وأنا أقرؤه، لم تصدق عينى أن هذا الذى تنعاه الصحف فى سطور قليلة، هو الدكتور أنور المفتى الذى عاش لآلاف المرضى، وأنا منهم، وكلنا يدعو الله للطبيب العالم الإنسان أن يعيش لنا ويعيش بعدنا!

لقد كان أنور المفتى ثروة قومية عربية، وكان ثروة إنسانية عالمية، فقد تفوق فى بحوثه الطبية والعلمية تفوقًا استرعى اهتمام المجلات الدولية به، وكان آخر ما قدمه للعالم أبحاثه عن مرض السكر.

وقبل أن يموت بأعوام كان يزور مصر طبيب عالمى مختص فى أمراض القلب، وألقى محاضرة عن هذا المرض الذى زادت

نسبة مرضاه بصورة مذهلة. وكان الدكتور أنور المفتى بين الذين استمعوا إلى المحاضرة، وعلق عليها بآراء وإحصاءات اعترف الطبيب العالمى بأنه لم يتمكن من الاطلاع عليها، وإن كان قد سمع بها.

وزارنى الدكتور أنور فى المستشفى، وكان يشرف على علاجى هو وزميله الدكتور منصور فايز، وقلت له: إننى عرفت ما دار بينك وبين الطبيب العالمى اليوم، فضحك وقال لى فى تواضع: هذا شىء بسيط، واكتسى وجهه بخفر العذارى، وأخذ يجس نبضى ويضع ميزان الحرارة فى فمى، حتى يغير موضوع الحديث، كأنه لا يريد أن يخدش حياؤه بكلمة ثناء عليه!

هذا العالم الكبير، وكان مثلا فى الجد، والعمل الدائب. وكان نبيلا، فى سلوكه كطبيب وكإنسان.

عرفت اسمه منذ عشرين عاماً، ولم يكن ذا شهرة كبيرة ولكن القصة التى رواها لى أحد أصدقائى عنه، قيدتنى بحبه وإجلاله، قال صديق: إن شقيقه المريض بالقلب طلب استدعاء الدكتور أنور المفتى للكشف عليه فى بلدته. وقيل له

واكتفيت من البحر بالنظر إلى موجه، والسباح فى هوائه [ص٨٨]

إن كبار الأطباء زاروه ووصفوا له الدواء. فأصر على أن يزوره أنور المفتى أيضًا. واتصلوا بأنور المفتى فاستقل عربته وذهب إلى منيا القمح، وهناك قابله أهل المريض وأخبروه بأنه لفظ أنفاسه الأخيرة. فأصر على أن يراه.. ولما أرادوا أن يقدموا له قيمة الكشف والزيارة رفض وقال: إننى لا أعود الفقيد ولكننى أزوره بناء على وصيته!

ولما عرفت الدكتور أنور المفتى عن قرب، تجلت لى إنسانيته فى مئات المواقف، وكان هذا العالم الجليل العبقرى، مولعًا بالغناء والموسيقى والشعر والأدب. وهى إحدى المقدمات التى شحذت قدرته العلمية الفائقة وجعلت له جاذبية لها سحر الدواء.

إننى لا أعرف ماذا كتبت؟ كل ما أعرفه أنى حاولت أن أبكى، وأشهق، وأزفر. ويارب اغفر لى حسرتى، وألمى، وفزعى فلست أعترض على قضائك، ولكنى أسألك أن تلطف بنا فيما تقضى... وسلام على أنور المفتى عالمًا، وإنسانًا. ليته عاش لنا، وعاش بعدنا... ليته!

كيف تعيش حياتك..؟

فى أحيان كثيرة يخيل لى أنى لا أعيش حياتى، ولكن أموتها.. الأيام تمر بى، فتأخذ من عمرى دون أن تعطينى شيئاً أى شيء.. انفعالا، شعورًا، تجربة!؟

وفى أحيان أخرى يخيل لى أنى أعيش حياتى بعقلى، وقلبى، وكل خلجات نفسى... أحس أننى أؤدى دورًا فى الحياة ومع الحياة.. دورى فى الحياة هو أن أعمل وأتأمل وأناضل فى سبيل فكرة أو عاطفة.. ودورى مع الحياة هو أن أستوعب ما فيها من خير وشر، وإيمان وشك، واستقامة واعوجاج.. أقاوم النزوة، وأستسلم للجمال! وكم توهمت وأنا أسهر الليل أن الغد لن يصحو إلا إذا أيقظته بآهاتى، أو ضحكاتى، أو دراساتى... وهل ليالى التى أسهرها إلا آهة أو ضحكة، أو دراسة؟

وفى لحظات الشعور بالثقة والصمود أستقبل يومى الجديد كما أستقبل أستاذًا جاء يمنحنى العلم والموعظة.. فأحتفى به،

وأقدم له فهمى، وذاكرتى، وانتباهى!

وكم أتطور الأيام خيلا، تملأ حظيرة عمرى، فأقصى منها المشوه والهزيل، وأنتقى الجياد الأصيلة، فأمتطيها، وأتنقل بها بين اليوم والغد، فى قوة، واعتزاز، وخيلاء!

وأنا حريص على أن أؤدى دورى فى الحياة. قد يكون هذا الدور فوق المسرح، دور بطل أو دور كومبارس. وقد يكون فى مقاعد المتفرجين. فى المقاعد الأمامية، أو فى أعلى التياترو! وإنى لتنتابنى الرغبة فى أن يكون دورى أكبر، ولكن لا أرغب ولا أفكر فى أن أتشبث بالبقاء على المسرح أو فى الصالة بعد إسدال الستار...

ولهذا فأنا لا أهاب الموت لأنه خاتمة الرواية. ولكنى أهاب المرض لأنه يعوقنى عن تأدية دورى!

والحياة عندى ليست فقط جسرًا نعبره إلى حياة أخرى، وإنما هى طريق نقطعه. طريق له بداية نود أن نعرفها، وله نهاية لن نصل إلى مداها... ولا يعنينى أن أقع وأنا سائر فى الطريق، وإنما الذى يعنينى أن أسير فى الطريق، ولو بضع خطوات!

وما أكثر الذين وقفوا فى طريق الحياة.. لم يمشوا، ولم يقعدوا.. لم يفتحوا أعينهم على ضوء، ولم يلتفتوا بآذانهم إلى نغمة، وهؤلاء اصطلحنا على تسميتهم أتقياء ورعين مأواهم الجنة... وما أظن أن لهم هذا المأوى أبدًا! فالله الذى خلق الدنيا وأودع فيها فنه العظيم لن يفتح جنته لمن تجاهلوا دنياه!

إن الحياة ليست جنة فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين. وليست جحيمًا يشوى جلودنا ويكوينا. وإنما هى ظل وشمس.. والإنسان الحى ليس من يحتمى دائمًا بالظل، وليس من يعيش دائمًا فى وهج الشمس، وإنما هو من يمارس الظل والشمس معًا؟

فكيف تعيش أنت حياتك؟

عقليات ترتدى «الشورت».. و «المايوه»!

ما من مرة ذهبت إلى الشاطئ إلا تمنيت أن أرتدى البنطلون «الشورت» أو «المايوه» وأتمرغ على الرمال، وأستقبل أشعة الشمس، وأدير لها ظهرى، وأقذف كرة، وأجرى خلف بالون، وأغوص فى قاع البحر، وأطفو فوق سطح الماء، وأرتطم بالموج وأمتطى القارب العائم!

ولكن ما من مرة أدركت ما تمنيت. صحيح أنى لبست المايوه، وسبحت فى البحر، ولكن ذلك كان منذ ربع قرن، ثم حدث أن غرق ابن عمى أمام عينى فى شاطئ سيدى بشر، فظللت زهاء عشر سنوات أجفل من رؤية البحر، كنت أرى الماء فأدوخ، وأقترب من الشاطئ فأحس أن قدمى تغوصان فى الرمال، وأن الأمواج تضغط رقبتى بقبضة من حديد.. من هذا التاريخ اكتفيت من الشاطئ بالمشى، والجلوس، واكتفيت من البحر بالنظر إلى موجه، والسباحة فى هوائه!

أما البنطلون الشورت فحتى هذه اللحظة لم أجرؤ على ارتدائه ولو على سبيل التجربة.. وكيف أجرب الخوف والفزع لى وللآخرين... فأنا فى حجم الفيل، وإنه شىء يخيف، ويفزع منظر الفيل.. وهو يرتدى البنطلون القصير أمام الناس أو وحده، وفى الطريق العام.

الناس يستريحون فى المصيف لأنهم يحررون أجسادهم من القيود، ويرتدون أخف الثياب، وأقصرها. ولا يشغلون أنفسهم بمشكلات الحياة.

وأنا أستريح فى المصيف، برغم أنى لا أخفف ثيابى، ولا أتخلص من فضول الكرافتة، والجورب، والحذاء المربوط.. فلماذا؟ هل الجو وحده يكفى للراحة أم تراني أستعيض عن تحرير جسمى من قيود اللبس، بتحرير عقلى ونفسى من قيود التفكير فى مشاكلى وهمومى؟ ولكنى أقرأ وأفكر فى المصيف، أضعاف ما أقرأ وأفكر فى أى مكان آخر.

ولقد أحصيت عدد صفحات الكتب التى قرأتها خلال الأسبوعين الماضيين فوجدتها خمسة آلاف صفحة! وأحصيت عدد المشاكل التى واجهتها فوجدتها عشرين مشكلة.

فما هو إذن سر راحتى وهدوئى وشعورى بالخفة والانطلاق!

لقد حاولت أن أعرف السر فى نفسى فلم أستطع، فرحت أبحث عنه فى نفوس أخرى... ثلاثة أشخاص تعودت أن أراهم فى الإسكندرية كل صيف.. وهم جميعًا يرتدون الملابس الشتوية كاملة، وفيهم من يحتفظ بصديرى فوق القميص، و «باجيتر» فوق الحذاء.. أستاذنا لطفى السيد، والدكتور سليمان عزمى، ومسرن الخيول سيمون.. وكلهم تجاوزوا الثمانين... وفى كل عام تتجدد أعمارهم، وتكتسب فتوة، ونشاطًا، ونضارة!.

إنهم لا يرتدون «الشورت»، ولا «المايوه»، ولا يسبحون فى الماء، ولا يمشون على رمال الشاطئ بأقدام عارية... إن عقولهم ونفوسهم وقلوبهم هى التى ترتدى «الشورت» و«المايوه».. إنهم يحررونها من التفكير العميق، ويكتفون بالنظرة العابرة، والمشاهدة السريعة... فأستاذنا لطفى السيد معلم الجيل، وفيلسوفه، صاحب العقلية التقدمية، والفكر الواعى المدرك يريح رأسه - خلال فترة الصيف - من

الدراسات الثقيلة ويكتفى بقراءة الجرائد والمجلات العربية والفرنسية. وهو يجلس فى بهو الفندق يتأمل الرائحين والغادين. ثم يستقل عربته إلى بلاج المنتزه، ويعود إلى الفندق عند الظهر ليتناول طعام الغداء، ويأوى إلى غرفته حتى الساعة الخامسة بعد الظهر ثم ينزل إلى الفندق ليستقبل زائريه ويوزع عليهم ابتسامات من وحى يومه، وأفكارًا من وحى أمسه! ثم يخلو بصديقه الدكتور سليمان عزمى ويلعبان الطاولة ساعة أو ساعتين!

والدكتور عزمى يقضى يومه مع أسرته الصغيرة، ويختلس من الساعات الأربع والعشرين ساعتين يقضيهما مع صديقه لطفى السيد.

وسليمان عزمى أستاذ لأساتذة الطب الباطنى، وقد تخصص فى مرض القلب، وهو نفسه يعانى هذا المرض من نحو خمسة وثلاثين عامًا!

وفى أثناء أشهر الصيف يغلق عيادته، ولا يعود المرضى إلا فى الحالات المستعصية، وإذا رأيته اليوم فى نشاطه وحيويته أحسست أنه شاب فى الثمانين!

والمرن سيمون هو المريض الوحيد الذى يعوده الدكتور سليمان عزمى فى الإسكندرية فهما ينزلان فى فندق واحد، وكلما انتابت سيمون أزمة قلبية استدعى له الفندق أقرب طبيب.. وسليمان عزمى هو أقرب طبيب من غرفة سيمون لأنه يحتل الغرفة المجاورة!

وقصة سيمون تدعو إلى الدهشة والعجب.. فهو قد أشرف على التسعين ولا يزال إلى الآن يتولى تدريب خيول السباق، ويذهب إلى الإسطبل كل يوم مرتين، ليتولى تضمير الخيل، وتمرينها، وعلاجها، وطريقة معيشتها..

وقد أصيب منذ عامين بمرض من أمراض القلب، وأجمع العلم والطب على أن أيامه معدودات، وذهبوا به إلى المستشفى، ولما طالت إقامته هناك ارتدى ملابسه وغادر المستشفى إلى الفندق، وهاج أخوه الذى يصغره بأربعين عامًا وقال له: حرام عليك تترك المستشفى وأنت مريض مرض الموت!

وفى كل صيف كنت أرى سيمون ومعه أخوه الصغير.. ووجدت فى هذا الصيف سيمون وحده.. فقد مات أخوه!

وكان الطبيب قد منع سيمون من أكل البطيخ، واستعمال الملح، وتناول الشاى، ولكن سيمون لم يخضع لتعليمات الطبيب. وظل يأكل البطيخ، ويستعمل الملح، ويتناول الشاى بإسراف شديد. وغضب « التمورجى » الذى يتولى خدمة سيمون وقال له : أنا لا أستطيع الاستمرار فى خدمتك مادمت لا تتبع تعليمات الطبيب.. ويقول سيمون : لقد عشت تسعين عامًا على البطيخ والملح والشاى.. ووجدت الذين لم يأكلوا البطيخ، ولم يستعملوا الملح، ولم يشربوا الشاى قد ماتوا فى ريعان الشباب.. فكيف أكذب الواقع وأصدق الطب!

وفى أحد الأيام تأخر « التمورجى » عن الحضور فى موعده المعتاد.. وأقسم سيمون أن يضربه بالعصا، ولكن سيمون لم يبر بقسمه فقد مات « التمورجى » !

وسيمون يعيش بقوة الإرادة، والعناد، وقد كافح فى حياته حتى أصبح شيخ ممرنى الخيول. وفى إسطبلاته تربت خيول سلطان والشريعى وأحمد ماهر وحفنى محمود وشعراوى وعبود وعشرات من خيول الوجهاء وأصحاب الملايين من أجانب ومصريين، وهو يحتفظ بذكريات، عن جميع الوزراء

وأصحاب السلطان خلال سبعين سنة مضت.

وسيمون قصير القامة، ضامر الجسم، عصبى، عنيد، يتوكأ على عصا خيزران وقد أنهكته الأيام حتى لم يبق منه إلا عناده، وعصا الخيزران!

ويقول أصدقاء سيمون إن عزرائيل زاره خلال العامين الماضيين مرتين.. فكان يهش عزرائيل بعصاه فيتقهقر عزرائيل احترامًا لشيخوخة سيمون، ولكن عزرائيل لا ينبغى أن يزور أحدًا ويرجع ويده فارغة.. فى الزيارة الأولى ترك سيمون وأخذ معه شقيق سيمون.. وفى المرة الثانية ترك سيمون وأخذ معه «تمورجى» سيمون!

إن سيمون مثل سليمان عزمى، مثل لطفى السيد، لم يرتد جسمه الشورت، ولا المايوه فى أثناء الصيف.. ولكن ثلاثتهم كانوا يحررون رؤوسهم وقلوبهم من القيود.. يجعلونها تلبس «الشورت» و «المايوه»..

نحن نتعلم.. لكى نحيا!

ما الحياة بالنسبة إلى الإنسان؟ هل هى أن يتنفس برئته، ويتحرك بجسده، ويأكل وينام؟ لو أن حياة الإنسان هكذا، فما الذى يميزه من الحيوان الذى يتصرف بغرائزه، ولا يقوى على أن يهذب هذه الغرائز أو يفلت من قيودها؟

لا شىء. ولكن الواقع أن الفرق بين الحياة الإنسانية، والحياة الحيوانية، واضح وعميق فالحيوان يتنفس بالرئة، ونحن نتنفس بالرئة وبالذهن. والحيوان يتحرك بجسده ونحن نتحرك بأجسادنا وأفكارنا. الحيوان يرى بعينيه. ونحن نرى بأعيننا ومشاعرنا وأفكارنا. الحيوان تمر به التجارب والأحداث فلا يهتم بها، ولا يستفيد منها، ونحن ندخل التجربة ونفيد منها، ونواجه الأحداث ونتأثر بها، وتؤثر فيها.. الحيوان يستسلم للغريزة، ونحن ندرس غرائزنا ونقدر على أن ننتقى منها ما هو خير، ونتفادى ما هو شر. الحيوان يعبر الحياة فلا يضيف إليها شيئًا، ونحن نبنى الحياة، ونطورها ونسمو بها..

وتفوق الإنسان على الحيوان، ليس تفوقًا فى القوة البدنية، فالحيوان فى هذا المجال أقوى، ولكن تفوقنا يكمن فى هذا الجهاز السحرى الذى اصطلحنا على أن نسميه العقل. فبالعقل سيطر الإنسان على ضراوة الوحوش، وسخر الطبيعة لخدمته، واستطاع أن يمنع الصواعق، ويواجه الزلازل، ويشق أجواز الفضاء، وينطلق فى الكشف عن الكواكب الأخرى.

ولكن العقل لا يستطيع أن يفرض وجوده إذا لم يمتلئ بالمعرفة والعلم وإذا عجز عن أن يتعلم فإن صاحبه لا يرتفع من مرتبة الحيوان. والعلم ليس له حدود، ولا شواطئ. ولهذا يظل الناس يتعلمون من المهد إلى اللحد، وإنهم ليغادرون دنياهم وهم يتوقون شوقًا إلى أن يعلموا ما لم يعلموا. وإلى أن يواصلوا التفكير فى الحياة التى ينتسبون لها. فالتفكير هو الحياة. ولكى نفكر يجب أن نتزود بالمعرفة ونقبل عليها بنهم شديد.

وقد كان العلم فيا مضى، صورًا من المعلومات لا يحتويها إطار منهجى وظل يتطور إلى أن أصبح قواعد، وأصولا، ونظريات.

التقوى الثائرة

كنت كلما التقيت بالإمام الأكبر المرحوم الشيخ محمود شلتوت أحسست أنى أواجه تقوى ثائرة.. تؤمن بالله، والإنسانية والحياة. فقد كانت عقليته متفتحة للمعرفة على اختلافها، وكان تبحره فى العلوم الإسلامية وفهمه لحقائق الدين، يثير الانتباه إليه. ولم أعرف بين رجال الدين من يفوقه فى قوة الجدل، وسلامة المنطق، والقدرة على الإقناع، والاستعداد للإصغاء إلى الرأى المعارض له بسماحة ذهنية، وصدر رحب.

والشيخ شلتوت لم يكن عالمًا دينيًّا يقول كلمته ويمشى، ولكن كان طيلة حياته مناضلا؛ له مواقف تعرض فيها للفصل من الأزهر منذ حوالى ٣٢ سنة، فقد كان يعبر عما يعتقده حقًّا ولا يبالى بالعواقب، على الرغم من أنه فقير لا يكاد يجد قوت يومه إلا من مرتب الوظيفة التى فصلته منها الحكومة إذ ذاك.

وكان يربطنى بالشيخ شلتوت إعجابى به محدثًا فى الإذاعة، وكاتبًا فى الصحف والمجلات، وصديقًا كنت أجتمع به فى جلسات نثير فيها مناقشات شائكة حول الدين والمجتمع، وكنت أخرج من هذه المناقشات وأنا حريص على أن تتكرر كل يوم.

وهو من أشد الناس وفاء لأهله، وأصدقائه، وأساتذته، وقد أخبرنى أنه كان تلميذًا لعمى المغفور له الشيخ مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر السابق، وقد ظل على صلة به، فلما مات عمى، لم تنقطع صلته بأبنائه، وماتت إحدى قريباتى، وجاء الشيخ إلى سرادق المأتم وجلس فى عربته إلى أن انتهى المقرئ من تلاوة بعض آى الذكر الحكيم، فقد كان مريضًا لا يقوى على السير، وعز عليه أن يدخل السرادق محمولا على الأيدى، وعز عليه فى الوقت نفسه أن يفوته واجب العزاء.

وقد لقيت الشيخ شلتوت فى مكتبه عام ١٩٥٩ وكان الناس فى جميع أنحاء العالم يتحدثون عن محاولات الوصول إلى القمر، وما أكثر الذين ارتجفت عقائدهم من هذه المحاولات

لأنهم رأوا فيها انتهاكًا لسر خطير من أسرار الله.

وسألت الشيخ عن رأيه فى هذا الحادث الجسيم، وهل يمكن أن يقال إن الوصول إلى القمر ليس هزيمة للعقيدة؟ فقال:

بل يجب أن يقال إنه نصر للعقيدة والدين وآية كبرى من آيات الله، وأفاض فى التدليل على ذلك بآيات كثيرة من القرآن الكريم. ولما سألته ماذا يكون موقفكم إذا وجهت إليكم دولة القمر الدعوى إلى زيارتها؟ فقال:

إذا ساعدتنى صحتى على السفر فإنى لن أتردد فى الذهاب إلى القمر وأنا أتمنى ذلك، بل أريده، لكى أرى بعينىّ أثرًا من آثار القدرة الباهرة، قدرة الله الفعال لما يريد.

وقد عانى الشيخ من المرض طويلا، ولكنه ظل إلى آخر رمق من حياته يفكر، ويدرس، ويتابع أحداث العالم، ويرفع كلمة الدين، بتقوى وثورة، وفهم وذكاء.

عندما سمعت نبأ نعيه فى الراديو انحدرت من عينى دمعة، حزنًا على نفسى. فقد كانت شخصية هذا الرجل قطعة طاهرة من نفسى، ونفوس كل المسلمين.

الجمال.. أقوى من الحب!

والجمال.. ياله من قوة طاغية؟ ماذا يريد منى؟ وإلى متى يظل يريد منى؟؟

لو أردنا أن نحصى كل ما قيل عن الحب والجمال، لملأنا آلافًا من المجلدات، وبرغم ذلك مازلنا نعانى الحيرة فى مفهوم الحب والجمال، ونتساءل ما هما، وهل لهما حقيقة محددة، أو أنهما شعور طليق ليس له حدود؟

والفرق بين الحقيقة والشعور، أن الحقيقة يمكن التعبير عنها بسهولة. وإن كان الحصول عليها صعبًا، أو مستحيلاً. وعلى عكس ذلك الشعور: الانفعال به سهل، والتعبير عنه شاق، وأكاد أومن بأن الجمال والحب شعور ذاتى، فنحن نحس الجمال. وننفعل بالحب، دون أن نتجشم ما ينبغى أن نتجشمه للوصول إلى الحقيقة من بحث، ومنطق وإدراك!

ولنتصور إنسانًا لا يشعر إلا بعد دراسة، ولا ينفعل

لقد أحست النشوة من الفتاة الجالسة وراء الخزانة وبجوارها آلة التليفون

[ص ١٠٣]

بالحب إلا بعدما يستخدم علمه ومنطقه.. إن مجرد هذا التصور يثير السخرية حتماً!

الحب شعور لأنه ينبع من داخلنا، والجمال شعور لأنه أيضًا ينبع من داخلنا.. فاعترافنا بالجمال لا يتوقف على خضوع ما نراه جميلا لمقاييس اصطلحنا عليها، وإنما نعترف بجمال الشيء إذا ما انفعلنا به وتجاوبنا معه.

وقد تنجذب إلى ذات، أو جو، أو منظر، يحس غيرك نفورًا من هذه الذات، وهذا الجو، وهذا المظهر!

الجمال إذن مثل الحب ليس صورة عامة خارجية، ولكنه إحساس ذاتى ينبع من نفوسنا.

ولكن هذا استطراد ربما أقصانى عن الخاطر الذى أريد تسجيله فى هذه السطور.. وهو خاطر بسيط، لا يحتاج إلى كل هذا التعقيد..

منذ عشر سنوات، كنت أقضى إجازتى الصيفية فى أحد الفنادق بمدينة الإسكندرية، واتفقت مع صيدلية قريبة من الفندق على أن ترسل لى «التمورجى» صباح كل يوم، ليحقننى بالأنسولين وكل الفيتامينات اللازمة لمن يعانون مرض السكر.

وكنت أشعر بالراحة والحرية، وأنا أتناول الحقنة فى غرفة النوم، فإن ذلك يهيئ لى أن أستلقى على السرير وأمارس أجمل لعبة رياضية تطيل العمر.. وهى لعبة الكسل!

واتصلت بى الصيدلية، وأخبرتنى أن «التمورجى» مريض، وأنه لا يوجد عندها من يتولى مهمته إلا الطبيب الصيدلى، وهو لا يستطيع مغادرة الصيدلية.. وحاولت أن أقنع الصيدلى بزيارتى ولكنه رفض.. فلم يسعنى إلا أن أذهب إليه لأتناول حقنة تحت الجلد، وحقنة فى العضل.. وشعرت بضيق شديد.. هل سأرتدى ملابسى الخارجية يوميًّا وأتوجه إلى الصيدلية، ثم أعود إلى غرفتى وأخلع ملابسى لأستريح، أو أظل خارج الغرفة دون أن أستريح!

ولم أكد أدخل الصيدلية، حتى شعرت بنشوة عميقة.. الصيدلى رجل وقور مهذب، ونظام الصيدلية رائق مريح.. ولكن هذا لم يكن مبعث نشوتى، لقد أحسست النشوة من الفتاة الجالسة وراء الخزانة، وبجوارها آلة تليفون!.. ما جدوى أن أصف عينيها، وقوامها، وابتسامتها.. وصوتها..

إن هذه السمات والملامح ربما كانت فى مستوى متواضع

لجمال لو أن للجمال مستوى.. ربما! ولكنها فتنتني وأغرتني بأن أتردد على الصيدلية فى اليوم الواحد عدة مرات.. أشترى الدواء، وأعود بعد دقائق وأسأل عن دواء أعلم أنه غير موجود!.. ثم أعود وأشترى كولونيا، أو صابونًا، أو أمواس حلاقة، أو معجون أسنان!

وكان بجوار الصيدلية مقهى صغير. فأخبرت الفتاة أنى سأجلس فى المقهى أنتظر مكالمة تليفونية سيحولها الفندق على الصيدلية.. وكنت قد أوصيت عامل تليفون الفندق أن يطلبنى كل نصف ساعة فى رقم تليفون الصيدلية!

وبعد أيام. عاد «التمورجى» إلى العمل، وأراد أن يوافينى فى الفندق كعادته قبل أن يمرض، ولكنى أفهمته أنى مستريح إلى تناول الحقنة فى الصيدلية.. وسألنى: أليس فى هذا تعب لك؟ وأجبته بأن الذهاب إلى الصيدلية والعودة منها إلى الفندق يريحنى جدًا. ولم يكن فيما قلته كذب أو مبالغة. فإن رؤيتى للفتاة كانت تتيح لى لذة أحلى من لذة الاعتكاف فى غرفتى، والاستلقاء فوق السرير، والاسترخاء على المقعد، والإغراق فى الكسل!

وكان لى فى ذلك الحين قلب يمارس حبًّا عابثًا.. فحررتنى فتاة الصيدلية من حبى.. لم أحبها، فقد كان جمالها أقوى من أن أحبها.. وكان أقوى من حبى لغيرها!

الجمال.. ياله من قوة طاغية! ماذا يريد منى؟ وإلى متى يظل يريد منى؟؟

الشمس المحتجبة

إن الشمس إذا غربت لا تأفل ولكن تحتجب عن أعيننا، وتظل فى دورانها إلى الأبد.. وكذلك الفنان، إنه لا يذهب عنا بالموت، ولكن يغيب ويتحول من مظهر فى الحياة، إلى جوهر للحياة!

هكذا أحسست وأنا أتلق نعى الفنان العبقرى إبراهيم أدهم وانلى.. عرفته منذ عشر سنوات مضت، كان هو وشقيقه محمد سيف الدين وانلى موظفين صغيرين فى مدينة الإسكندرية.. ووصلا إلى القاهرة ليقدما ألوانًا من رسومهما للصحف والمجلات وكان الأستاذ كمال الملاخ مؤمنًا بفنهما، وحاول أن ينقل هذا الإيمان إلينا، وكنا نعمل معًا فى جريدة

« الأهرام ».. ولكن محاولته لم تنجح..

فقد كانت طريقتهما غير مألوفة.. وعرفت من كمال أنهما يرسمان معًا، ويفكران معًا، وأنهما لشدة اندماجهما يكادان يكونان شخصًا واحدًا!

ورأيتهما بعد ذلك لأول مرة فى دار « أخبار اليوم » وشعرت بنفور شديد منهما.. قوام ضخم، وملامح مشوهة، وملابس غريبة بذلا أكبر عناية فى إهمال تفصيلها.

ثم التقيت بهما بعد ذلك، وتحدثت معهما. فلمست فيهما رقة لا تتفق مع قسوة مظهرهما.. كان كلاهما يحمل قلب طفل وعقل فيلسوف.. الحياة عندهما أن تحب، وتعمل، وتكلدح.. كنت أشم فى لوحاتهما رائحة العرق المتصبب من الروح والفكر والجبين!

لقد ظلا يعملان فى صمت، وتعفف، وزهد، أربعين عامًا.. كانا يعانيان شظف العيش.. لم يتحصنا فى أسرتهما وفيها أمير، وباشا، ورئيس وزارة.. وقنعا بالوظيفة ذات المرتب الزرى وعكفا على الدراسة حتى أصبح كل منهما أستاذًا فى المعهد العالى للفنون، مع أنهما لم يتعلما فى أية مدرسة عالية!

إذا تكلمنا عن فن أدهم وانلى، فقد تكلمنا عن فن شقيقه سيف، فهما صاحبا مدرسة يرى النقاد أنها تأثرت بطريقة الرسام العالمى «ديجا». وهؤلاء النقاد أنفسهم يعترفون بأنه لا يوجد للأخوين وانلى مثيل فى إبداعهما وتفوقهما.

فقد تميزا بالقدرة على الرسم بصراحة فى الحركة، ووحدة فى الألوان.

ومن المفارقات الجديرة بالتسجيل، أ الأخوين المنحدرين من سلالة أرستقراطية، عاشا فى الجو الشعبى واهتما بتسجيل الموضوعات الحوشية!

وكان آخر ما رسماه.. عشرات من اللوحات تمثل معابد بلاد النوبة ومن بينها معبد أبو سنبل.

وقد سجلا فى عدة لوحات كل رقصات فرق الباليه التى زارت مصر، وهى لوحات تمتاز بالعنف فى اختيار الألوان، وتجسيم الحركة، حتى لتكاد تسمع فى الرسم دبيب الرقص وعزف الموسيقى!

وكلا الأخوين يسكب روحه فى اللوحة التى يرسمها، وكلاهما يتميز بموهبة أصيلة، وعين ذات ذاكرة قوية..

فلا ينسى أحدهما حركة، أو نبضة، أو اختلاجة مما يراه، حتى إذا عكف على الرسم سجل كل ما شاهده.. بفهم، وفن، ودقة..

ليس هذا بكاء على أدهم وانلى فحزنى عليه أعجزنى عن البكاء، وما هو بدراسة لعمله فلست ناقدًا. وإنما أنا أتأثر بالعمل الفنى، وأحبه وأدين لكل لوحة، وكل نغمة بتسطير ذوق ومحاولة الارتفاع به.

وأنا مدين لوانلى، مدين للوحاته العظيمة، ولست وحدى المدين، دنيانا كلها مدينة له.. فقد خلدها بفنه..

الإنسان البدين.. قليل الدين!

عانيت فى هذا الأسبوع أزمة صحية لا عهد لى بها، كنت فى الأزمات السابقة أعرف مرضى، فأقاومه بمختلف الأدوية والعقاقير، أحيانًا أستشير الطبيب، وأحيانًا لا أستشيره... !

فى هذه الأزمة لم أعرف المرض الذى أقاسيه على وجه التحديد، هل هو برد؟ ولكن البرد يقترن عادة بزكام، وسعال وارتفاع فى درجة الحرارة، غير أنى لم أشعر بزكام، أو ارتفاع فى درجة حرارتى، ولم أحس إلا السعال العادى الناشئ من تدخين السجائر بنهم شديد..

هل هو ضغط دم؟ الطبيب أكد لى منذ شهر مضى أن ضغطى طبيعى؟ هل هى حالة من حالات الكبد والمرارة؟ لا أدرى... كل ما أدريه أنى لم أكن أستسيغ طعم الماء أو الأكل أو السجائر، وأن رأسى يئن من الدوار، وأطرافى باردة وجسمى كله منهار!

وذهبت إلى واحد من أطبائى العديدين، وقد اخترت هذا الطبيب بالذات لأنه يميل إلى الأدب، والفن، والفلسفة، وهو متفائل دائمًا، يجيد الابتسام فى وجوه مرضاه، يستوى فى ذلك المريض المتمائل للشفاء، والمريض المشرف على الموت!

وفحصنى طبيبى، وقرر أنى مصاب بحالة من حالات البرد ساعد على شدتها مرض السكر!

وقلت له: إننى أسير طبقًا للنظام الذى وضعه لى، لكى أقاوم السكر، وصارحته بأنى منذ اتبعت هذا النظام، وهن عظمى، فلا أكاد أتحمل نسمة باردة، وأصابنى الأرق فلا أستطيع أن أنام إلا بالأقراص المنومة، والحبوب المهدئة للأعصاب!

وضحك الطبيب وقال: إن الهزال هو العلاج الوحيد لمرض السكر.. ولو استطعت أن تخفض وزنك أكثر من ذلك فسوف تبرأ من مرض السكر حتمًا!

واعترضت على رأيه هذا بأن بدانتى ليست طارئة، وإنما هى طبيعية، فقد خرجت إلى الدنيا وأنا من الوزن الثقيل، وعشت طفولتى وصباى وشبابى بدينًا، وكنت برغم بدانتى

إنسانًا نشيطًا، أجرى دون أن ألهث وأركب البسكليت، وألعب البلياردو، وأصعد إلى الدور الرابع عشر مرات فى اليوم بأنفاس هادئة ومنتظمة!

وقال الطبيب: إن تكوينك غير طبيعى، ومهمة الطب أن يجعلك إنسانا طبيعيًا، لا تتعرض لأمراض أخرى أشد خطرًا من مرض السكر، فأصحاب الوزن الثقيل، معرضون أكثر من غيرهم لضغط الدم، وتصلب الشرايين وتضخم الكبد، وكل أمراض القلب....

وذكر أنه قرأ فى إحدى المجلات العلمية، أن بعض رجال الدين فى أوربا، يرون أن البدانة خطيئة يعاقب عليها الدين!

وأن الإنسان البدين يعد مذنبًا، وعاصيًا، لأن البدانة تنشأ من الإفراط فى الطعام وقد نهى الدين عن الإفراط فى كل شىء!

وقلت لطبيبى إن ديننا يدعو إلى ذلك أيضًا، فمن تعاليم الإسلام: «خير الأمور الوسط» و «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع» و «جوعوا تصحوا».

وهممت بالانصراف، فقال لى: انتظر حتى أكتب لك «الروشتة».

وقلت له لا حاجة لى بالروشتة لقد عرفت دوائى: لن آكل حتى أجوع، وإذا أكلت لن أشبع.

وقال الطبيب الفيلسوف: لو طبق مرضاى هذه الحكمة لاعتزلت مهنة الطب!

وذهبت إلى البيت ووجدت فى انتظارى صينية بطاطس مدعمة باللحم، وطاجنًا من الأرز.. ولعنت الأنانية التى تجعلنى أوثر صحتى على أن يمارس طبيبى مهنته.. لعنت الأنانية والتهمت البطاطس والأرز، حتى أستطيع أن أتردد على الطبيب فى اليوم التالى!

إن التجارب علمتنا أن المرض مثل العمر، سر غامض، وقد عرفت ناسًا كانوا يأكلون بنهم ولم يمرضوا، وناسًا كانوا يأكلون بحذر وظلوا طول حياتهم مرضى....

ومنذ سنوات أصيب أحد أصدقائى بقرحة فى المعدة، وذهب إلى أوربا، وعولج من مرضه، وعاد إلينا صحيحًا معافى، وذات يوم صدمته سيارة ومات!

ليست هذه الخواطر دعوة إلى الناس بأن يخرجوا على تعاليم الطب، وإنما هى برقية عزاء أبعثها إلى نفسى.. بعد أن أكلت صينية البطاطس وطاجن الأرز!

الفن والفنانون

هل نحن نحب الفن؟ أو أننا نحب الفنان؟ ظل هـذا السؤال يلذع مشاعرى وأنا أشيع جنـازة الفنـان أنـور منسى. ولما وصلنا إلى قبره، ورأينا جثمانه يهبط القبر انهمـرت الـدموع من عينى، وأحسست أن حريقًا شب فى ضلوعى..

وكان كل من فى القـبر يبـكى. أصـدقاؤه، وزمـلاؤه، إخوته، أبوه... كانت أمه هى الوحيدة التى لم تـذرف دمعـة عليه. كانت تتخيله مازال حيًّا. وتعجب كيف تتركونه وحـده فى هذا المكان.. وهو الذى كان يحب الناس، يجتمع بهـم، ويصادقهم، ويندمج معهم.. كيف ينـام هـكذا مبـكرًا قبـل المغرب وهو الذى تعود السهر حتى الصباح؟ كيف تلفـونه فى الكفن وتوسدونه التراب. وهو الـرشيق الأنيـق الـذى يحسـن اختيار ما يرتديه، واختيار ما ينام عليه..

وتمضى الأم الذاهلة فتخـاطب ابنهـا قـائلة: إلى أيـن

يا أنور؟ كيف تتركنى وحدى وكيف أتركك وحدك يا رفيق عمرى؟

قم.. تكلم.. ابتسم.. اعزف على الكمان.. هؤلاء هم أصدقاؤك جاءوا كلهم ليسمعوك.

وأطبقت أيدى الحفارين على قبر أنور منسى، وغطوه بالرمل والورود، وعندئذ أفاقت الأم من ذهولها، وصرخ كل ما فيها.. قلبها، فمها، عينها! وولولت بصوت خنقته الدموع، ولدى. ولدى.

وعدنا إلى موكب الحياة، بعد ما نفضنا أيدينا من تراب القبر الذى ضم فنانًا ساهم فى جمال الحياة. فإن أنور منسى لم يكن مجرد عازف كمان، ولكن كان فنانًا مرهف الشعور، رقيق العاطفة، يحب، وينفعل، ويتأمل، ويتجاوب. وكان بعزفه الساحر البارع على الكمان يخلق للنغمة نبضًا، وعروقًا، ودمًا.. وكنا نحن الذين عرفناه عن قرب نحس وهو يعزف على الكمان أن خفقات قلبه قد انتقلت إلى قلوبنا.

عرفت أنور من حوالى عشرين عامًا، وكنت مولعًا بعزفه، وهو بعد فنان ناشئ، وعندما أصبح أنور منسى فنانًا كبيرًا، لم

ألمح عليه مسحة من الاستعلاء أو الغرور. فقد ظل ذلك الإنسان الودود الوديع، يحنو على كمانه برقة وثقة، ويذوب فى النغم. ويذوب النغم فيه.

ولقد برع أنور فى العزف المنفرد، وكان معروفًا بالنبوغ الخارق فى عزف الألحان العالمية، ولكن أنور كان نابغًا أيضًا فى عزف النغمات العربية.

ومنذ أشهر قليلة، سهرنا معه، وظل يعزف على الكمان أنغام العتابى والليالى، وبعض التقاسيم الشرقية، فهزنا من أعماقنا.

وفى ذات صباح اتصل بى أنور منسى، ودعانى إلى حفلة ساهرة اتفق مع أحد أصدقائه على إقامتها فى الهرم احتفالا بعيد رأس السنة. واعتذرت من عدم استطاعتى تلبية دعوته فسألنى : هل عندك حفلات أخرى؟

ولما قلت له إننى لن ألبى أية دعوة لأية حفلة، ضحك وقال : إنك فى كل سنة تحب أن تستقبل العام الجديد فى أكثر من مكان.. فاستقبله عندنا، وعند غيرنا!

وقلت له : إننى منذ ثلاثين سنة أستقبل السنة الجديدة

مع الناس.. أستقبلها فى البيوت، والشوارع، والأماكن العامة.. وكانت السنوات التى أهتم باستقبالها، تعرض عنى، أو تنكبنى فى صحتى.

ولقد قررت ألا أستقبل أى عام جديد، لن أستقبل السنة الجديدة، ولكنى سأنتظرها.. سأنتظرها فى بيتى.. سأنتظرها وحدى؟ وما هى السنة الجديدة بالنسبة إلينا؟ إنها زيادة فى عمر زماننا ونقص فى أعمارنا.. فلماذا نحتفل بها؟

وقال أنور: هذه فلسفة لا أفهمها.. فلسفتى التى أومن بها هى ببساطة: اضحك يضحك لك العالم، وافرح بالأيام تفرح لك الأيام!

وضحك أنور منسى للعام الجديد، وفرح به، وغنى، ورقص.. وجاء العام الجديد فمزق قلوبنا حسرة على الفنان الذى كان بحياته وفنه جوا، ودنيا، وحياة.

هل نحن نحب الفنان؟ أو نحن نحب الفن؟ إننا نحب الفن من خلال الفنان، فلا فن بغير فنان، ولقد أحببنا فن أنور من خلاله. وكان حبنا لأنور مثل حزننا عليه، صادقًا، وعميقًا..

عقلى.. وصحتى!

ما أكثر الكلمات التى وعاها ذهنى وأنا صغير، فبهرتنى من هذه الكلمات حكمة تقول: «العقل السليم فى الجسم السليم».

وكنت أظن أننى سأظل مبهورًا بها طول عمرى. فالأذهان فى مرحلة الطفولة، مثل الأرض، تحتفظ بالبذور المغروسة فيها. البذرة القوية تنمو، والبذرة الضعيفة تذوب فى الأرض وتصبح جزءًا من الأرض!

ولكن سوء حظى أغرانى بأن أناقش الحكمة القديمة، وأدخل معها فى تجربة، وانتهت المناقشة والتجربة بأن اقتلعت الحكمة من رأسى، فقد اتضح لى أن سلامة جسمى تقتضينى أن أقيد عقلى فيصبح عاجزًا عن أن يفكر، أو يتخيل. وما جدوى العقل إذا عجز عن التفكير والخيال!

إن جسمى لكى يكون سليمًا من المرض، يجب أن أتبع فى حياتى نظامًا صارمًا، فأمتنع عن الطعام الذى أحبه،

ولا أتناول من الأطعمة إلا ما لا أطيقه كاللحم المسلوق، والخضر الخالية من الملح، والخبز الأسمر الجاف.. الخيار فاكهة.. واللبن الزبادى حلوى!

ويجب أيضًا أن أقلع عن السهر، وأنام مبكرًا، وألغى الليل من يومى ولا أعترف إلا بالنهار..

ولا ينبغى أن أدخن سيجارة، أو أشرب فنجان قهوة، حتى لا يرتفع ضغط الدم، أو أتعرض لهبوط فى القلب!

ولقد خضعت لهذا النظام فترة طويلة، فاكتسبت صحتى نضارة، ولكن عقلى أخذ يذوى، ويذبل وخيل لى أنى فقدته فكنت أدق على رأسى بأصبعى.. أحاول أن أبحث عنه كما لو كان شيئًا ماديًا ضاع منى!

وفى هذه الفترة قرأت كتابًا قيمًا عنوانه (عقلك مصدر الصحة والمرض) وهو من تأليف الدكتور (ك. س. وختل) وقد ولد فى ألمانيا عام ١٨٩٧ وتلقى علومه فى جامعاتها، وتخصص فى الطب العقلى، والطب النفسى الجسمى، ورحل إلى أمريكا فى ١٩٣٧. وتوفر على معالجة حالات كثيرة من الأمراض، وعكف على دراسة مرضاه نفسيًا وجسميًا، وعقليًا

واستخدم دراساته وتجاربه فى كتابه الشائق الـذى يقـع فى أكثر من ٣٠٠ صفحة.

وقد ترجمه الأسـتاذ سـامى على الجمال وراجعـه الـدكتور يوسف مراد أستاذ علم النفس بجامعة القاهرة.

والفكرة الجوهرية للكتاب هى - كما يقول الـدكتور مـراد - أن ما يحدثه التفكير الخـاطئ مـن اختـلال فى الصـحة الجسمية والنفسية، يمكن للتفكير السـليم الـواقعى أن يعـالجه. ولا يعتمد المؤلف فى تدعيم فكرته على مجرد الجـدل النـظرى، بل يذهب مباشرة إلى الواقع ويستخرج مـن ملفـات مـرضاه عددًا كبيرًا من الحالات، تـاركًا للـواقع الحـى، أن يتحـدث بلغته المقنعة.

ولقد أخذنى الـكتاب بـأسلوبه البـارع فى سرد التجـارب، وشرحها وتيسيرها بحيث يستطيع القـارئ العـادى أن يسـتوعب أدق الحالات.

والكتاب يتناول عدة فصـول أهمهـا (مـا الـذى يجعلك مريضًا، وما الذى يجعلك سـلبيا) و (المريض بـالوهم مـريض فعلا وعقله يستطيع أن يشفيه).

وكل فصوله تزخر بقصص حقيقية لمرضى باشر الدكتور (وختل) علاجهم بنفسه. وبينهم من أدرك عقله حقيقة ما يعانيه واتبع نصيحة الأطباء فعاش، وبينهم من أخطأ فهم الحقيقة أو أدركها ولكنه لم يقتنع بها فمات.

أحد المرضى كان يشكو من المرض بصفة عامة، وعرض نفسه على أمهر الأطباء فأثبتوا له أنه ليس مريضًا. ولكنه لم يصدق أطباءه وصدق نفسه، وانتقل إلى العالم الآخر.. وجاء في تقرير وفاته أنه (مات في أحسن صحة).

استهوتني من الكتاب نظرية تؤكد أن الأمراض والإصابات تثير في الجسم نشاطًا داخليًّا فيرسل الجسم تلغرافات إلى المخ، ويتولى العقل حل رموز هذه التلغرافات.. مثلا إذا أصابك جرح خارجي فإنك تتلقى من داخل الجسم برقية تأمرك: (بأن تضمد الجرح وتستدعي الطبيب) والعاقل من ينفذ الأمر فورًا فيظفر بالشفاء!

ولقد دفعني الإعجاب بهذه النظرية إلى أن أطبقها على نفسي، فجعلت من مخي جهاز استقبال للبرقيات التي أتلقاها من داخل جسمي.. وكانت أول برقية مغصًا في الجانب

الأيمن من البطن وحللت رموزها فإذا هى حالة «مصران» أعور.. وذهبت إلى الطبيب وفحصنى وقرر أنى لا أعانى أى التهاب لا فى «المصران» الأعور ولا فى «المصران» الغليظ!

وكانت البرقية الثانية ضيق تنفس وفهمت من الرموز أن هذا الضيق إنذار بذبحة.. وفحصنى الطبيب وقرر أننى على ما يرام.. وكانت البرقية الثالثة دوارًا فى رأسى وارتخاء فى جفونى، وأدركت أن هذه أزمة كبد.. وفحص الطبيب حالتى وقال لى: الكبد فى أحسن حال!

وكنت وأنا مهتم هذا الاهتمام بالبرقيات التى أتلقاها من صدرى وأمعائى أسير طبقًا للنظام الطبى الصارم. لا سهر، ولا تدخين، ولا طعام، ولا قهوة، ولا انفعال بالحياة!

وفى لحظة من لحظات هياج الأعصاب قررت أن أصفى جهاز استقبال التلغرافات، التى أتلقاها من داخل الجسم حتى أريح نفسى من الحيرة هل أنا أعانى المرض؟ أو أنا أعانى الوهم.. ثم إنى وجدت أن اهتمامى بصحتى، قد أورثنى ضياع عقلى.. فإن اتباعى لنصيحة الأطباء قد حولنى من جثة هامدة إلى جسد يتحرك ولكنه فى الوقت نفسه قد جعل من رأسى ضريحًا يضم رفات عقلى!

إن النظام الذى وضعه لى الأطباء يحتم أن أستسلم للفراش. يرقد جسدى فلا يتحرك. ويرقد عقلى فلا يفكر.. ويرقد قلبى فلا ينفعل!

وهذا النظام قد يطيل عمرى، ولكنه لن يطيل حياتى.

لقد قاطعت السجائر، فشفى الله صدرى وحلق من الكحة والسعال، ولكنى كنت أحس أن عقلى يسعل ورأسى يكح.

إن دخان السيجارة هو العصا التى تتوكأ عليها خواطرى، والأجنحة التى تحلق بها أفكارى وأنا لا أستطيع أن أعيش بدون خواطر، وأفكار!

أستاذ جيلين

اليوم يجتمع أصدقاء أستاذنا الكبير عباس محمود العقاد، فى مسكنه القديم بمصر الجديدة، لمناسبة بلوغه العام الرابع والسبعين. وقد قرروا أن يحتفلوا بهذه المناسبة فى الصباح..

فالعقاد الذى سهر الليالى ستين عامًا يبحث، ويفكر،

وينظم الشعر، ويؤلف الكتب. أصبح بحكم السن لا يسهر إلا فى النهار!

إن العقاد أستاذ جيلين أو أكثر فمنذ نيف وخمسين عامًا بدأ اسمه يظهر فى حياتنا الأدبية، كأحد ثلاثة من طليعة الثائرين المجددين فى الشعر، الداعين إلى وحدة القصيدة.

أما زميلاه الآخران فهما عبد الرحمن شكرى وإبراهيم عبد القادر المازنى.

وقد كتب العقاد مقدمة الجزء الأول من ديوان شكرى فى عام ١٩١٢. وتعد هذه المقدمة أول دراسة جاءت واعية لمفهوم الشعر، ومن يقرؤها اليوم تأخذه الدهشة لما تنطوى عليه من آراء متطورة والتفاتات ذهنية إلى جميع اتجاهات الأدب العالمى.

وقد ظل العقاد طيلة حياته يمارس الكتابة والاطلاع، والدرس بعمق ومعاناة ويتزود بالثقافات الإنسانية على اختلافها، ويتابع بفهم ووعى كل ما يصدر فى العالم من كتب فى الفلسفة وعلم النفس، والمنطق، والسياسة والتاريخ، واللغة، والدين، وفنون النحت، والرسم، والموسيقى والمسرح.

والعقاد شخصية إنسانية فذة فهو أستاذ نفسه. وتلميذ نفسه أيضًا. فمازال حتى هذه اللحظة يخصص وقتًا لتلمذته هو الوقت الذى يقضيه فى القراءة، ويخصص وقتًا لأستاذيته هو الوقت الذى يكتب فيه!

والعقاد شاعر، ومفكر، وكاتب. وقد اشتركت فى تكوينه نزعة العاطفة ونزعة العقل، وكان فى مطلع شبابه لا يتحيز لإحدى النزعتين وأخيرًا آثر العقل ولاذ بحماه فهو يسيطر بعقله على جميع انفعالاته العاطفية والفكرية وما أكثر ما اشتبكت فى عقل العقاد عناصر الشك واليقين. ثم انتهى هذا التشابك إلى إيمان راسخ بالدين والعلم معًا.

ولقد أصدر العقاد حوالى ثمانين كتابًا تؤكد جدارته بالقمة التى يجلس فوقها.

وعندما بلغ السبعين من عمره كان عدد الكتب التى ألفها يوازى عدد السنين التى عاشها، وقد سألته إذ ذاك:

«لو التقى بك التاريخ وقال لك أنا مسافر الآن إلى الأجيال القادمة. وأريد أن أحمل معى إلى أبناء هذه الأجيال كتابًا واحدًا من كتبك فما هو الكتاب الذى تختاره؟»

فقال بلا تردد: أختار كتابى عن ابن الرومى..

وابن الرومى معروف بشؤمه، وقد لحق شؤمه بالعقاد. فعندما كان يؤلف هذا الكتاب قدمته النيابة إلى المحاكمة بتهمة العيب فى ذات الملك فؤاد وأدانته محكمة الجنايات، وأمضى فى السجن تسعة أشهر.

وسألت العقاد: لماذا اختار كتابه عن ابن الرومى؟

فقال:

هذا الكتاب يحدد مقاييسى فى النقد، وخلاصة رأيى فى الأدب الإنسانى.

ودار بينى وبينه حوار أسجل منه هذه السطور:

- ألا تخاف على نفسك وأنت فى التاريخ من شؤم ابن الرومى؟

العقاد: إننى ما خفت على نفسى من شؤم ابن الرومى وأنا حى أستطيع الخوف.. فهل أخاف منه بعدما تنتهى الحياة وأصبح عاجزًا عن كل شىء. حتى عن الخوف!

- ألا تخشى أن يمتد شؤمه إلى عمرك الآخر.. عمر الخلود؟

العقاد : أصبحت لا أكترث بالخلود !

- هل تتساوى قدرتك على التعبير الفنى مع قدرتك على تلق المعلومات والانفعال بالشعور ؟

العقاد : أظن.. ربما.. نعم !

- هل تحب أن تغزو التاريخ بشعرك أو بكتابتك ؟

العقاد : بشعرى..

- وأى قصيدة تختارها لتغزو بها التاريخ ؟

العقاد : قصيدتى «ترجمة شيطان».

- ولماذا تختارها وحدها ؟

العقاد : لأنها تصور منى الجانب الشعرى والجانب الفكرى.

- هل تعتقد أن التاريخ سيحتفظ بكتاب آخر من كتبك غير كتاب ابن الرومى وقصيدة أخرى من شعرك غير قصيدة ترجمة شيطان ؟

العقاد : هذا الأمر لا يعنينى !

ربما شك بعض الناس فى أن العقاد لم يقل الحقيقة

عندما أجاب هذه الإجابة. ولكن الذى لاشك فيه أن الاحتفاظ بآثار العقاد أمر يحرص عليه التاريخ.

لماذا تخاف الموت؟

أمضيت فترة من الصباح مع أهلى الذين سبقونى إلى المصير المحتوم وقفت على قبورهم، تلوت فاتحة الكتاب على أرواحهم، واستمعت إلى آى الذكر الحكيم يرددها أناس ليسوا حكماء! فهؤلاء الذين يرددون القرآن الكريم فى المقابر لا تسمع منهم ألفاظًا ولا أصواتًا، ولكن حشرجة كحشرجة الموتى!

وظللت أفكر فى الموت، لماذا نتهيبه ونخافه؟ لماذا يخافه من لا يؤمنون بحياة أخرى غير هذه الحياة إنهم لن يذهبوا - كما يعتقدون - إلا إلى العدم فكيف يخشونه وهم لن يشعروا به؟

ولماذا يخاف الموت أهل الشك وفى الموت نهاية لحيرتهم، وجواب عن سؤالهم الدائم: إلى أين؟ إن ذهبوا إلى غير مكان فهم لن يشقوا، لأنهم لن يحسوا.. وإن ذهبوا إلى عالم

آخر فسوف يسعدهم أن يجدوا ما ظلوا طول الحياة يبحثون عنه ولا يجدونه!

ولماذا يخاف الموت من لم يستطيعوا أن يؤمنوا، أو يلحدوا، أو يرتابوا ارتيابًا صريحًا مثل أينشتين الذى سئل: هل تؤمن بحياة أخرى؟ فلم يقل لا.. ولا نعم.. ولا ربما.. وقال: «حياة واحدة تكفينى»!

لماذا يخاف الموت من يقنعون بالحياة الواحدة، وهو إذا انتهى بهم إلى غير حياة لم يفقدوا شيئًا لأنهم كانوا قانعين بحياة واحدة، وإذا انتهى بهم إلى حياة ثانية فقد منحهم حياة لم تدخل حسابهم؟

لماذا يخاف الموت من يؤمنون بالبعث؟ إن كنا نخاف عذاب الله فى الآخرة. نخشى الله فى الدنيا وهو أمر لا يجشمنا عناء ولا تعبًا، فليس مطلوبًا منا أكثر من أن نكون رحماء، عادلين، أما الذنوب التى لا نؤذى بها أحدًا فسوف يغفرها الله لنا.

ولقد أقمت حياتى، وعلاقاتى بالناس، على أساس من الرحمة، والحب والعدل وأعتقد أن الله راض عما أخذت به

نفسي، فأنا لا أكره أحدًا، ولا أظلم أحدًا، حتى من يظلمني أقاومه، وأناهضه ولكنى لا أجرده من مواهبه وفضائله.

أعترف له بمزاياه، وأحارب عيوبه، ولا أجرؤ على أن أصفه بما ليس فيه، فلا أرميه بالجهل إذا كان عالمًا، ولا بالظلم إذا كان عادلا.

أذكر صوابه وأهاجم أخطاءه، ولا أغريه بأن يقع فريسة هذه الأخطاء بل أعمل على تبصيره بخطئه، ولا أتمنى أن أنتصر عليه بل أتمنى أن ينجو من الخطأ.

الحب، والعدل، والرحمة، تجرى فى دمى، وتنبض فى عروق، ولست أحب أصدقائى فقط، ولكن أحب خصومى أيضًا، ولأنى أحبهم أخالفهم فيما أعتقد أنه ليس صوابًا، ولست أرحم أصدقائى وحدهم، ولكن أرحم خصومى كذلك فلا أغدر بهم ولا أطعنهم فى ظهورهم، ولا أرميهم بما ليس فيهم.

وأنا أحكم بالعدل بين الناس والآراء. والأشياء. وإذا تحيزت لصديق سألت الله أن يكون هذا التحيز رحمة وليس ظلمًا.

وإنى أومن بالبعث، وأعتقد أننا سنقف جميعًا بين يدى الله يحكم بيننا بالعدل والرحمة والحب، ومع ذلك شعرت عندما وقفت على قبور أهلى، أنى أتهيب الموت وأخشاه، لماذا؟ لست أدرى!

السماء والأرض

تعودت منذ كنت طفلا صغيرًا، أن أحدق فى السماء. فأشد نظرى إليها أحاول أن أعد نجومها، وأتبع سير السحب، وهى تتجمع، وتتفرق. أجرى معها إذا جرت، وأتوقف إذا وقفت وكنت أحب الذهاب إلى قريتى، كى أتمكن من التفرغ لرصد النجوم فى الليل. من فوق السطح، أو فى المزارع وكان جدى رحمه الله ينهانى عن ذلك ويقول لى :

إن هذه العادة ستورثك الجنون. فإن النجوم خلقت لتنظر إلى الناس. والناس خلقوا لينظروا إلى الأرض.. فانظر إلى الأرض.. وأقول له : وما فائدة النظر إلى الأرض؟ فيقول : لنزرع، ونجنى، ونبنى ونستخرج الماء والمعادن، وكانت الطائرات اختراعًا حديثًا بالنسبة إلى البشر، فقلت له : إن النظر إلى

السماء قد هدانا إلى اختراع الطائرة.. فقال: قاتلها الله.. إنها آلة هلاك وتدمير!

كان ذلك منذ عشرين عامًا.

والآن أسائل نفسى أيهما أجدى: النظر إلى الأرض أو النظر إلى السماء؟

لا النظر إلى السماء ولا النظر إلى الأرض يجدى. ولكن العمل فى السماء وفى الأرض هو الذى يجدى. احرث الأرض تخرج لك الثمر والماء والذهب والبترول. واحرث السماء تخترع طائرة جديدة، وتطرق بيديك أبواب المريخ!

لا تكتف بأن تنظر، بل اعمل، فإن النظر يدعك فوق الأرض، كما أنت.. أما العمل ولو كان فى الأرض فإنه ينقلك إلى السماء!

شم النسيم

احتفل الناس اليوم بشم النسيم. عيد الربيع. فاستقبلوه بالابتسامات، والمرح، والمنى. واستقبلهم بالإشراق، واليقظة والشذا. قدموا له الألوان الحمراء، والزرقاء، والصفراء،

والخضراء والبيضاء، قدموها لـه فى ثيابهم، وفى لعبهـم، وفى البيض وثريات الكهرباء وقدم لهـم نفس الألـوان، وأكثر منهـا فتنة وبهاء فى الزهر، والورد، والخس والبرتقال والخيـار، قـدم لهم حمرة الشفق وصفرة الغروب، وزرقة السماء، ودكنة النهر، وخضرة ماء البحـر، وبيـاض الموج. وكما ضحـك النـاس واختالوا وانتشوا ضحك الربيع كما يقول البحترى:

أتاك الـربيع الـطلق يختـال ضـاحكاً

مـن البشر.. حتى كاد أن يتـكلما

وكما تبرج الفتى للفتاة والفتاة للفتى فى يوم شـم النسيم. عيد الربيع والتحرر والانـطلاق، تـبرجت الـطبيعة بنجـومها وشمسها، بزهرها وشجرها كما يقو ابن الرومى:

تـــبرجت بعـــد حيـــاء وخفـــر

تـبرج الأنـثى تصـدت للـذكر

وكنت مع الناس ولم أكن معهم.. جمعنى بهـم يـوم شـم النسيم، فنشقت الشـذا كما نشـقوه، ورأيـت مثلهـم السماء والأرض والناس ألـوان الـزهر والبيض، وثـريات الـكهرباء.. ولكنى لم أكن مثلهم..

كانوا يستقبلون الربيع، وكنت أودع الربيع... إن يوم شم النسيم هو المحطة التى يجتمع فيها القادمون والمسافرون والمستقبلون والمودعون.. واجتمعت بأصدقائى فى المحطة، أى فى يوم شم النسيم... كانوا معًا، وكنت وحدى!

كلا يا أصدقائى... لا تنتظرونى فأنا أودع وأنتم تستقبلون.. أنا ذاهب وأنتم قادمون!!

الفقر الذكي.. والثراء الغبي!

ماذا تصنع لو خيرتك الأقدار بين أن تكون فقيرًا ذكيا، أو ثريا فى منتهى الغباوة؟

إذا تركت نفسك لسجيتها، فسوف تختار حتمًا، الثراء مع الغباوة.. فالفقر يقتل فى الإنسان كل شيء، يقتل المواهب، والمشاعر، والمعانى... إنه يحول القوة إلى ضعف، والصحة إلى مرض، بل إنه يحول الذكاء المفرط، إلى غباوة مطلقة!

وقديمًا دعت أعرابية لطفلها الوليد أن يرزقه الله حظا يخدمه أصحاب العقول، ولا يرزقه عقلاً يخدم به أصحاب الحظوظ!

وهو دعاء يتمشى مع الغريزة، والفطرة، ومنطق الحياة..

أنا شخصيا أوثر أن أكون ذكيا ولكنى أكره الفقر.

وليس معنى ذلك أنى أحب المال. أو على الأصح لست أعرف كيف أحدد علاقتى بالمال، هل أحبه أو أكرهه. فما

أكثر ما تتجمع الأموال فى يدى، وما أكثر ما أبـددها.. وكلما عضنى الإفلاس بأنيابه الحـادة لجـأت إلى مصـل السـلف.. احقن به نفسى! أحيانًا أحصل على هذا المصل مـن البنـك، أو من إدارة الجريدة وأحيانًا أحصل عليه من السوق السـوداء بواسطة المرابين!

والذين يروننى يظنوننى فى حـالة ثـراء فـاحش.. فـأنا أتصرف فى المال كالأغنياء، والفرق بينى وبينهم أنى أنفق آخـر قرش، وهم ينفقون أول قرش.. وأنا مثل الأغنياء أتعامل مع البنوك والفرق بينى وبينهم أنهم يدينون البنـوك، وأنـا أستدين من البنوك!

هناك كثيرون يحصلون على المال ويحددون إقـامته فى عمارة أو أرض، أو سهم، أو سـند، أو رصـيد.. ولسـت مـن هؤلاء، فـإنى لا أكاد ألـقى القبض على المال، حـتى أطلـق سراحه وأتـركه يـركض دون أن أسـأله إلى أيـن؟ ودون أن أعرف هل يعود أو لا يعود!

ولعلى لم أجب بعـد عـن سـؤالى : هلى أحـب المال أو أكرهه؟ وما أظننى أردت بهذه الـكلمة أن أجيـب عـن هـذا

السؤال، وإنما أردت أن أسجل شعورًا تائهًا مبهمًا.

ولكن لماذا انتابنى هذا الشعور اليوم بالذات؟

كنا نتحدث عن أمراض السكر، ضغط الدم، وتصلب الشرايين، وكان بيننا أساتذة فى الطب فأجمعوا على أن هذه الأمراض تظهر بكثرة فى الطبقة الغنية، وتختفى فى الطبقة الفقيرة، فقد ظهر من إحصاءات دقيقة أنه يوجد بين كل مائة غنى تسعون غنيًّا يعانون أمراض السكر والضغط وتصلب الشرايين. فى حين لا يوجد بين كل ألف فقير أكثر من شخص واحد يعانى هذه الأمراض..

وقد علل الأطباء الفنيون هذه الظاهرة، بقدرة الأغنياء على ملء بطونهم بالأطعمة الدسمة، والحلوى، والنشويات.. وليس هذا هو السبب الوحيد للأمراض التى أشرت إليها، فهناك نظرية ترى أن الخوف يجلب هذه الأمراض. ولقد قام أحد العلماء بتجربة أكدت صحة النظرية: حبس قطًّا فى قفص، وحبس فأرًا فى قفص آخر، وجعل القفصين فى وضعين متقاربين. وقاس ضغط الفأر وضغط القط قبل حبسهما فوجد الضغط عندهما عاديًا. وبعد شهر قاس ضغط القط

فوجده كما هو، وقاس ضغط الفأر فوجده عاليًا جدًا.. وخرج من هذه التجربة بأن خوف الفأر من القط المجاور له هو الذى ضغط دم الفأر!

والخوف يدخل حياة الأغنياء ولا يدخل حياة الفقراء.. فعند الأغنياء ما يخافون عليه من مال ومتعة، وجاه.، أما الفقراء فليس عندهم أى شيء يخافون عليه!

ولقد تآمر الترف والخوف على الأغنياء، فأصابهم بالسكر، وضغط الدم، واختصر أعمارهم.. ونجا الفقراء من الترف والخوف معًا فطالت أعمارهم، ولم يتعرضوا لهذه الأمراض الوبيلة، وكل مرض يصيبهم قابل للبرء والشفاء.. بما فى ذلك أمراض السل والأنيميا، والتهاب الرئة!

أما الأغنياء فلا يمكن أن يبرءوا من أمراضهم إلا إذا عاشوا كما يعيش الفقراء.. يعملون، ويكدحون، ويمشون، ويمتنعون عن النشويات والدهنيات!

فكيف نفسر هذه الظاهرة؟ هل نفسرها بأنها عدل طبيعى لمحو الفوارق غير الطبيعية بين الأغنياء والفقراء؟ هل نفسرها بأنها سيطرة الذكاء الفقير على الثراء؟ إننى أميل إلى هذا

التفسير الأخير.. لمنذ آلاف السنين احتكرت طبقة غنية قليلة العدد خيرات بلادنا. كانوا هم يملكون الأرض وكان الفقراء يعملون. كانوا يجنون، والفقراء يزرعون ويكدحون واستطاع الزارعون الكادحون بذكائهم أن يقنعوا الأغنياء بأن الأذرة، والجبن القريش، واللبن الرايب ليست إلا توافه. وأن الخير فى دقيق القمح الأبيض، والجبنة الدسمة، والقشدة والسمن.. وظل الأعيان يأكلون هذه الأطعمة التى تضغط دماءهم وتوتر شرايينهم.. وعاش الفقراء على الأطعمة التى أصبحت أحدث دواء لضغط الدم، وتصلب الشرايين.. وهى الجبن القريش، واللبن الرايب، والخبز المصنوع من الأذرة.

ويخطئ القارئ إذا ظن أن هذا الكلام بحث فى فلسفة الغنى والفقر والذكاء، والمرض.. فليس هذا الكلام فى الواقع إلا تحية لآبائنا الفلاحين الفقراء الأذكياء الذين استطاعوا أن ينتقموا من ظالميهم فيدسوا لهم السم فى الدسم.. فى الزبدة والسمن واللبن الحليب والبيض ودقيق القمح الأبيض!

وجهة نظر

مولد الرسول

هذا الإنسان العظيم جعل من الكلمة سلاحًا ونورًا. فبالكلمة التى تلقاها من ربه، بالقرآن بيّن للناس الحق من الباطل، والخير من الشر، وبالكلمة دعانا إلى أن نتأمل، ونرتفع وننمو، ونتقى، ونحب الآخرين.

ولنفكر فى كل شيء: فى أنفسنا، فى السماء، فى الأرض، فى الله.

ولنمد يدنا للفقير. وما نعطيه لهم ليس صدقة، ولكن حق لهم عندنا!

ولنعمل لدنيانا كأننا نعيش أبدًا... ولنعمل لآخرتنا كأننا نموت غدًا..

ولنتحرر من الضعف فلا انحلال ولا استخذاء، ولكن قوة نحارب بها أعداءنا، فإن جنحوا للسلم جنحنا لها،

ولا استغراق فى الكون، ولكن ممارسة للحياة. ولا انعزال عن المجتمع ولكن اندماج فيه، ومشاركة فى العمل والبناء..

ولنقذف بالأوهام إلى قاع سحيق.. فلا سحر، ولا شعوذة، ولا رجم بالغيب... وكذب المنجمون ولو صدقوا!

ولا تأليه لطاغية، أو صنم، أو شهوة. ولكن تحطيم للطغاة، والأصنام والشهوات... فلا إله إلا الله!

والمسلم لا يتعصب ولكن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة وهو يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فلا تفرقة عنصرية ولا تمييز لجنس أو لون، فلا فرق بين عربى وأعجمى إلا بتقوى الله!

والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده... والإسلام سلام.. فتحية المسلمين فى الدنيا: السلام عليكم، والجنة تحيتهم فيها سلام!

وقد عمت رسالة نبى الإسلام العالم، وصارت حضارة فكرية نامية، وعقيدة دينية راسخة.

وصلى الله على محمد....

إلى أين... ؟

فى منتصف ليل أمس، وعلى قرع أجراس الكنائس، وخلال فترة ظلام صاخب، امتدت يد القدر إلى حياتى فانتزعت منها عامًا كاملا....

وكم من مرة انتزع القدر من حياتى أعوامًا وأعوامًا، فما تألمت، ولا جزعت لأن أيامى كانت كثيرة... كنت فى ثراء فاحش من صباى وشبابى... ولكن أيامى اليوم قليلة.. وانتزاع عام منها يشعرنى بالفقر، والفراغ، والعدم... فقد تجاوزت الأربعين، تجاوزتها وحدى لا صحة، ولا مال، ولا زوجة ولا ولد، ولا صديق..!

إلى أين أيها العام المنقضى... ؟ إلى أين أنت ذاهب بأعمارنا، وإلى أين نحن ذاهبون... ؟ ولو كنا ندرى لما سحقتنا الحسرة والحيرة، ولو كنت تدرى لكان لنا فيك عزاء عن جهلنا، ولكنك مثلنا تجهل ولا تعلم..!

وإلى متى نرى أعمارنا هكذا تجرى بلا قيد وراء الأعوام الذاهبة.. ؟ ونرى آمالنا ترسف، بل تحجل، وكأنما هى مشدودة إلى جبل.. ؟

ولكن علام نبكى الحياة، وماذا لو رحلت عنا، أو رحلنا عنها.... مادام الرحيل هو الغاية والهدف... ؟

وما هى الحياة.. ؟ إنها كما يقول «أبو العلاء».

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب فى ازدياد.

وهل نحن، والحياة، والموت.. إلا كما يقول «إديسون»:

«نئن ونبكى وهذه هى الحياة.. ثم نتثاءب ونذهب.. وهذا هو الموت»!

امض أيها العام.. امض.. فغدًا مثلك سنمضى..!

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا   من البشر حتى كاد أن يتكلما

[ص ١٣٢]

الوتر المقطوع

فى الثلاثين من عمره، ولكن بؤسه أحاله فى الخمسين : أثقل الهمّ كاهله، وحني الفقر ظهره، وأدمعت الغربة عينيه!

عرفته منذ ستة أشهر فى حفلة خاصة، غنى فأبكانا... وسألته عن قصته، فروى لى أنه نشأ فى فلسطين، وتعلم فى لبنان، ونزح إلى مصر، ثم أقام بها، وقد تزوج ورزق ولدًا، وهو يكد ويجتهد لكى يربى ولده الوحيد.

وشاء الله أن يفتح له أبواب العمل فصنع ألحانًا لبعض الاستوديوهات واتفق مع محطة الإذاعة، وأقام بضع حفلات نجحت جميعًا.

وكان أول أمس موعد إذاعته، وفى الموعد المحدد فوجئنا بسماع مطرب آخر فقلت لعله تأخر عن الميعاد، فهو فنان! أو لعله قد مرض، فهو ضعيف! أو لعله قد شغل، فقد كثرت أعماله فى الأستوديو... ولم أقل لعله مات، لأنى لم

أكن أعلم أن الموت ترك زهرة حياته وهى ذابلة، لكى يقطفها بعدما أينعت ! !

مات إذن «محمد نورى الحبال». ولم تنشر الصحف نبأ وفاته، فإن الذين عرفوا النبأ لم يتجاوزوا ابنه الطفل، وزوجته، ومستشفى الحميات...

كان الحبال مطربًا، فى صوته شجى، وفى لحنه ذوق، وفى نغماته ألم. وكان يجيد تأدية الحال «العتابى» والترنم بالقصائد التصويرية وقد تلقى العلم فى إحدى مدارس بيروت. وكان زميلا لثلاثة شعراء ماتوا جميعًا فى سن الثلاثين.

حدثنى رحمه الله أن هؤلاء الشعراء - ولا أذكر منهم إلا المرحوم إبراهيم طوقان - كانوا ثلاثتهم يحبون فتاة واحدة، وقد نظموا فيها قصيدة غناها لهم الحبال، وقد بدأها أحدهم فقال :

يا يوم أقبلن أمثال التماثيل
مكللات بهالات الأكاليل
تبعت «ليل» و «ليلى» ذات تضليل
«ليلى» فديتك ما أقساك «ياليلى»

وقال ثانيهم :

يـانفحة الآس يـازهر البســاتين
ويا هــزازا شــدا بـين الأفــانين
ويـا شـذا نـرجس غضّ ونسريـن
أراحــل أنــت أم بـاق إلى حـين ؟

وقال ثالثهم :

هل نـظرة لعميـد القلـب مفتــون
هل نهلـة مـن لماك العـذب تـرويني
أواه أبـكى على مـن ليس يبـكيني

. . . .

وكان يغنى «لطوقان» قصيدة أذكر منها هذا المقطع :

أصـبحت لا يشـفى غليلى ابتســام
ولا انحنـاء الـرأس عنـد السـلام
أولى بنـا أن نتشـاكى الغـرام
يـا حبـذا لقيـا على مـوعد
وحبـذا أخـذ يـد فى يـد
حتى يقـول النـاس هـامت وهـام

بهذا الشعر الحى، كان يغنى الحبال، وكان يضفى على ما يغنيه ألوانًا طلية من فنه وذوقه وصوته القوى الحنون، فيستثير الشجى، ويغرى بالشجن.

كان الحبال وترًا جديدًا فى قيثارة الغناء العربى، وكان يجمع إلى مواهبه الفنية، صفات خلقية تبعث على العطف والإعجاب، وكم كنا نود لو امتد به وبنا الزمن، فاستمعنا إليه أكثر مما استمعنا، ولكن الوتر لم يكد يشد إلى القيثار، حتى قطع..

ومضى الحبال، مثل رجع الصدى.. مضى كالحلم، وكان حقيقة، مضى كالأمس. وكان مرجو اليوم، مرموق الغد.. ولكنه القدر!

الحرية

أعلن الفنان الفيلسوف الساخر شارلى شابلن أنه لن يعود إلى أمريكا، لأن حكومتها منعت دور السينما من عرض أحد أفلامه، وجعلته هدفًا ثابتًا لحملات بعض الصحف، وقد وصف هذه الصحف بأنها صفراء، وأنها أخذت تشهر به، وتتعرض لحياته الخاصة، وتتهمه بأنه داعية من دعاة الشيوعية !

ولقد اتخذ شارلى هذا القرار بعد أن أتاحت له أمريكا أن يعيش فيها أربعين سنة، بنى خلالها مجده السامق الشامخ، وكون أسرته المؤلفة من زوجة وأربعة أبناء، وجمع ثروة تقدر بملايين الدولارات.

ولكنها لما صادرت حريته كفنان وإنسان، تركها بمن فيها، وما فيها، وراح ينشد حريته !

فما المجد بلا حرية ؟.. إنه ليس إلا وهما !

ما أكثر الآثار التى ستخلد اسـم شـارلى شـابلن. ولـكن هذا الأثر الأخير، هذا الغضب من أجل الحرية، سيظل أجـدر آثار شارلى بالبقاء، إنه الفيلم الذى سيستمر عرضه على شاشة التاريخ أجيالا، وأجيالا..

الفهرس

صفحة

خذوها.. وأطبعوها ٥
الحياة.. أوهام لاتنتهى ١٠
من أين.. وإلى أين ؟ ١٩
عقوبة الموت.. وعقوبة الحياة ! ٣٠
أيهما أقسى : الموت.. أم الحياة ؟ ٣٥
إلى أين يا أصدقاء ؟ ٤٠
الحق.. والحياة ٤٣
الهاربون من القضاء إلى القدر ٤٨
أيتها الذكريات.. ماذا تريدين منى ؟ ٥٤
وهؤلاء الأطباء.. هل ينطبق القانون عليهم؟ ٦٠
الحياة لقاء.. والموت فراق ! ٦٨
إلى أين.. أيها الإنسان؟ ٧٢
إلى أين نمضى ؟ ٧٦
عش بعدنا ٨١
كيف تعيش حياتك ؟ ٨٥
عقليات ترتدى «الشورت».. و«المايوه» ! ٨٨
نحن نتعلم.. لكى نحيا ٩٥

صفحة

التقوى الثائرة ٩٧
الجمال.. أقوى من الحب ١٠٠
الإنسان البدين.. قليل الدين ١٠٩
الفن والفنانون ١١٣
عقلي.. وصحتي ! ١١٧
الفقر الذكي.. والثراء الغبي ! ١٣٤
وجهة نظر : مولد الرسول ﷺ ١٣٩
إلى أين.. ؟ ١٤١
الوتر المقطوع ١٤٤
الحرية ١٤٨

رقم الإيداع		١٩٨٧ / ٢٦١٦
الترقيم الدولي	٩-١-٢٠٠١-٢-٠٢-٩٧٧	ISBN

١ / ٨٦ / ٢٣٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)